صدام حسين مناضلاً ومفكراً وإنساناً

الدكتور أمير اسكندر

مؤلف الكتاب الدكتور أمير اسكندر كاتب ومفكر عربي من طليعة الكتاب لمصريين التقدميين المعروفين على نطاق العالم العربي.

تخرج في قسم الفلسفة بجامعة القاهرة في يونيو /حزيران 1956، واشتغل بالصحافة منذ تخرجه، وعمل بجريدة المساء القاهرية حتى عام 1959، وفي عام 1964 عمل بجريدة الجمهورية القاهرية حتى عام 1973 حيث فصل من عمله مع مئة وعشرين كاتباً وصحفياً في مصر آنذاك.

أصدر عديداً من المؤلفات الفكرية والنقدية من أهمها: تناقضات في الفكر المعاصر، حوار مع اليسار الأوروبي.

فقرات مما جاء في مقدمة الكتاب "ليس هذا الكتاب مجرد سيرة ذاتية للرئيس صدام حسين رئيس جمهورية العراق، ولكنه أولاً وقبل كل شيء سيرة نضالية لواحد من أبرز قادة العالم العربي في هذا العصر "... "إنه سيرة مناضل، ومسار تجربة، ومسيرة ثورة ".. "وفي هذه المرحلة ا لسياسية من تاريخ العالم، والعالم العربي بوجه خاص، التي تختلط فيها الأوراق، وتتداخل الخنادق، يبدو الوضوح الفكري والسياسي أهم من أي وقت مضى .. إن هذا الكتاب محاولة لإعادة اكتشاف الحقيقة، وتقديمها إلى أولئك الذين يريدون بحق أن يعرفوها بعيداً عن التعصب والحقد والانحياز المسبق".

رحلة مناضل على طريق الثورة

1 – نجم يُشرق من بيوت الطين

دائماً هي الصحراء تمنحنا إحساساً بالتناقض..

هذا المدى الذي لا يحده حد، مهما ابتعدت آفاقه، سرعان ما يقطعه اقتراب السماء من الأرض، أو اقتراب الأرض من السماء. هذا الوضوح الساطع كحد السيف سرعان ما يلفه الغموض والالتباس مثل عباءة البدوي المسافر . هذا الدفء الحنون، هذا الانتماء الصميمي، هذه الألفة المتوهجة، سرعان ما تقتلعها جميعها من جذورها وحدة موحشة كوحدة المحتضر، وقسوة صلبة مثل سنان الصخر، ولا مبالاة متجهمة كليل مدلهم بارد . إن ذلك الهدو ء العميق والصمت الشامل والسكون الثابت له قناع الأزل وليس له دوامه، إذ سرعان ما تتقاذفه الزوابع والرياح والعواصف الهوجاء، وكأنها لحظة نهاية العالم . إن الصحراء هي الكائن الباطني الأعظم، ظاهرها غير باطنها، وما يعلو سطحها ليس هو بالضرورة ما يدور في أعماقها.

لم يكن غريبا أن تطرح الصحراء كل الأسئلة الكلية التي أرقت وعي الإ نسان منذ ميلاده، وليس مثيراً للدهشة، أن كل الديانات التوحيدية الكبرى خرجت جميعها من ضميرها الهادر، فها هنا ظهر أول تفسير للحياة، ومن هنا انبثق أول تأويل للإنسان، وعلى سطح هذه الرمال جرت بداية المحاولات النظرية لتغيير العالم.

أما هذه البقعة من الصحراء، فإن لها امتيازاً على صحارى الشرق كلها ، إنها تختزن في ذاكرتها العميقة، عمق آلاف السنين، ذكريات حضارة من أعظم الحضارات الإ نسانية القديمة، حضارة تسجيل الخبرة البشرية على ألواح الطين واكتشاف الكتابة، حضارة التحكم في الظاهرة الاجتماعية، وضبط السلوك الفردي والجماعي، ووضع قوانين حمورابي، حضارة سومر وآشور وبابل.

ومع أن الصحراء قد طوت، فيما طوت، كل تلك الحضارات في أعماقها، وانطوت على نفسها مئات السنين، تعاني هجير الجفاف الفكري والإبداعي، فإن تلك اللحظات لم تكن في جوهرها تعبيرا عن الموت النهائي، فوق سطحها، لمعنى الحضارة، إنها كانت على العكس، أقرب إلى الاعتزال الصوفي، بمعنى ما من المعاني، حيث تكون المجاهدة أو المكابدة

طريقا جديدا، شاقاً ومؤلماً، لا إلى الذوبان أو التلاشي، و إنما نحو مزيد من الاتحاد العميق الشامل مع أقصى غايات النضال الإنساني حين يكون الإنسان، هو وحده سدرة المنتهى وغاية المطاف.

ومن ثم، فإن هذه البقعة من الصحراء، سرعان ما عادت من جديد، عندما ظهر الإسلام فحملت مشعل الرسالة، وعاشت أيام العباسيين أزهى لحظات الحضارة العربية، بل صارت هي نفسها حاضرة الحضارة العربية، في ذروة كمالها واكتمالها، وعندما أصبحت بغداد، أيامها، إحدى أهم وأغنى مراكز الإشعاع الحضاري في العالم أجمع، كان ذلك اتساقا مع منطق القوانين الطبيعية والاجتماعية والإنسانية التي تتجلى في جوهر التقدم التاريخي إلى أمام.

غير أن ذلك التقدم لا يعني، في جوهره أو شكله، تقدماً خطياً أو ميكانيكياً إلى أمام على الدوام. إن التاريخ يعرف في طريقه دائماً التعرجات والتراجعات، وإذا كان التقدم هو الأفق النهائي لحركته، فإن هذه الحركة تتحقق في النهاية عبر انتكاسات مؤقتة تقصر أو تطول في زمانها حسب عديد من العوامل والشروط. وهكذا حين بلغت الحضارة العربية أوج كمالها واكتمالها، وتحقق في إطارها، في تلك اللحظة، أقصى ما وصلت إليه الأمة العربية في تاريخها من وحدة وتكامل، دق أبواب حصونها هولاكو والتتار، عاصفة عاتية من الرمال البشرية المعادية لحضارة الإنسان، راحت تدك وتهدم وتدمر، ارفع وأنبل ما بناه الإنسان، وعادت الصحراء التي كانت قد أخفت وجهها وراء حقول العباسيين النضرة، وبساتينهم المزهرة، إلى الظهور من جديد، تختلط فيها كثبان الرمال بجماجم البشر، وصار "دجلة" الذي استطاع العباسيون أن يروضوا به الصحراء، ويشفوا بأمواجه أوارها، مثقلا بمزيج ملتهب من الحبر والدم . إن ذاكرة الإنسانية التي احتفظت بها مكتبات بغداد تحولت إلى شلال أسود حين ألقى بها التتار في النهر، وشكل اللونان الأسود والأحمر، في لحظة من لحظات الانكسار التاريخي في مسيرة البشرية، المغزى العميق واللانهائي لوحدة الكلمة والإنسان.

إن مرحلة طويلة من الظلام قد بدأت في تلك اللحظة، لم تتمثل ظلمتها في انهيار الثراء المادي والثقافي، الازدهار الحضاري للأمة، فحسب، ولم تكن علاماتها الكئيبة تغير طرق التجارة الدولية وضمور المدن العربية الزاهرة، أو تدفق جحافل الصليبيين- تتار الغرب- على قلب الوطن فقط، وإنما تمثلت أشد ظلمتها وأكثر علاماتها كآبة، في انفراط تكامل الأمة العربية نفسها، وتمزيق وحدتها . ومهما حاول "الخليفة الناصر" - آخر العباسيين- أن يعيد توحيد الجسد الممزق، سيكون الأوان قد فات، والتاريخ لم يعد قابلاً للاستعادة، ولسوف نحتاج إلى عدة قرون، حتى يبزغ من الألم والمعاناة، من مرارات النضال الطويل ضد تعرجات التاريخ وتراجعاته، نجم، وآنذاك سيكون أوان المخاض الجديد قد آن، وستبدأ لحظة "البعث".

إن صدام حسين قد ولد في زخم تلك اللحظة العربية العسيرة، ووسط آلامها . وربما كان للتوافق التاريخي بين لحظة ميلاده، وميلاد البعث، دلالة أعمق وأبعد من مجرد المصادفة العشوائية أو الاتفاق الشكلي في الزمن بين لحظتين . ذلك لأن المسرح عندما يكون قد تهيأ، والدور الهائم قد بدأ يبحث عن بطل، سيكون صدام حسين قد اشتد عوده، ووقف في الكواليس على تمام الأهبة ليلبي نداء التاريخ بجدارة.

لم يكن مولده في عام 1937 بهيجاً، ولم يحط مهده بالورود والرياحين . ولم يفتح فمه ليتلقى ملاعق الذهب. لقد ولد يتيماً، مات أبوه قبل أن ترى عيناه النور، ولد فقيراً من صلب فلاحين صغار فقراء. ومثل الكثرة الغالبة من قادة التاريخ الحقيقيين كان عليه من لحظة وعيه لنفسه أن يواجه تحديات الحياة بأن يصنع وجوده بنفسه.

كان ذلك في الربيع. في اليوم الثامن والعشرين من نيسان عام 1937 وضعت السيدة صبحة طلفاح المسلط مولودها في بيت أخيها، الحاج خير الله طلفاح، وكان عمه حسن المجيد هو الذي أطلق عليه اسم (صدام).

البيت يقع في منطقة تدعى "الحارة" وهي مكان تجمع أقارب صدام حسين حيث غالباً ما كانت تقسم مناطق السكن في المدن الصغيرة على هذا الأساس وفق التقاليد الاجتماعية الماضية. في تلك المدينة الصغيرة الواقعة على ضفة نهر دجلة اليمنى، والتي اتخذت اسمها "تكريت" من كلمة رومانية كانت تطلق عليها من قبل وهي: ميونيا تيغريدس، ومعناها قلعة دجلة، ويحيط بها سور مثمن له أربعة أبواب. وتذكر دائرة المعارف الإسلامية أن هذه المدينة تعرف من خلال المؤلفات

السريانية القديمة باسم "تغريت"، ويذكر البلاذري أن هذه المدينة قد حررت من السيطرة الرومانية عام 20 هجرية، على يد القائد العربي عقبة بن فرقد.

ومع ذلك فإن شرف الأصل لا يتوافق بالضرورة مع الثراء ، إن صدام حسين الذي ولد في هذا البيت الطيني الذي ينتصب على أعمدة من الخشب لا تكاد تقوى على حمله، من أصلاب الفلاحين الفقراء- وهكذا كانت في الأغلب والأعم بيوت تلك المدينة الصغيرة- ينتمي في الواقع إلى أسرة من أعرق الأسر في تاريخ العرب الديني والسياسي على السواء، وإذا كان المؤرخون العرب يهتمون في تاريخ الإنسان برسم الأشجار التي تحفظ تسلسل الأرومة في شكلها الأسروي، فإن تأمل شجرة الأسرة التي انحدر منها صدام حسين يدلنا على إنها تمتد جذراً بعد جذر إلى الأسرة العلوية، وتاجها الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهو نفسه لم يذكر في أحاديثه ولقاءاته قط هذه الحقيقة، ربما لأنه يرفض المزايدة بالأصول التاريخية والدينية أمام من لا يملكون سواها، ويسعى لأن يجسد المعنى العلماني العصري للكرامة والشرف: أن تكون كرامة المواطن مستمدة من كرامة الوطن، وأن ينبثق شرف المناضل من نضال الثورة . غير أنه في لحظة مواجهة مريرة وشاقة على النفس، مع الذين حاولوا أن يغدروا به ويخونوا عهده، حين أصبح القائد الأول للمسيرة الثورية في وطنه، قال في خطابه الشهير حينذاك (1979/8/8): "نحن أحفاد علي". ولا شك أن هذه العبارة، كانت تحمل معنى واقعياً شخصياً- ربما لم يدركه الكثيرون ممن سمعوه- بقدر ما حملت من دلالة تاريخية ومغزى سياسي.

لم يعش صدام حسين طفولة مريحة سهلة. لقد تنقل في السنوات العشر الأولى من حياته ما بين البيت الذي ولد فيه، بيت خاله، وبيت عمه الحاج ابراهيم الذي تزوج من أمه بعد وفاة أبيه، كما تجري الأعراف عادة، في مثل هذه الظروف، هناك في تلك المناطق. وكان عليه من البداية، منذ طفولته الباكرة، أن يواجه قدره بنفسه. ولقد كان على مشاعر اليتم الدفينة في نفسه، إما أن تدفعه إلى الانطواء النفسي والانكفاء الحزين على الذات، أو تدفعه إلى خارج نفسه، نحو الآخرين، ليجد في اتحاده معهم، عزاء وتعويضاً عن وحدته الذاتية، ولحسن الحظ- ولا شك أن عوامل البيئة الاجتماعية والجغرافية قد ساعدت في ذلك- فإن صدام حسين رفض الانغلاق والتقوقع الفردي، وواجه الحياة الشاقة العسيرة وهو في سنوات الطفولة الغضة كرجل، كمناضل بالفطرة. ولقد علمته صعوبات الحياة في بيئته الأولى التي أحاطت به، حيث كانت أرض الفلاحين الفقراء تطرح مرة ثمارها، ومرات تضن بها، معاني أساسية سوف تلازمه طيلة حياته ونضاله. الصبر، الجلد على تحمل الصعاب، شدة المراس، الاعتماد على النفس، الشجاعة، القدرة على اقتحام المخاطر، الصرامة القاسية، الدقة في الحساب النفسي للمشاعر، الانضباط في السلوك الأخلاقي. وقبل ذلك، وبعده، حب الفقراء، والالتصاق ببسطاء الناس.

إن مجموعة السمات النفسية التي يمكن استخلاصها من متابعة طفولته الأولى، والإنصات إلى أحاديث الذين كانوا محيطين به في تلك المرحلة من حياته، تدلنا على أنه كان يملك في ذلك الوقت المبكر، الخصال الأساسية- بمعناها النفسي والأخلاقي- لصورة الفارس العربي، الذي يعد نفسه، أو تعده الأقدار، كي يلعب دوراً قيادياً في وطنه، وهو نفسه قد قال ذات مرة : "إن النهج السياسي اللاحق للإنسان، لا يستقل عن تاريخه السابق، عن ولادته، وحياته، وصعوبات حياته".

إن واحدا من الذين كانوا قريبين منه في تلك الطفولة الباكرة- أخاه الأكبر "إدهام" (والواقع انه ابن ابراهيم الحسن زوج أمه، ولكن موقعه وعلاقته مع صدام كالأخ الشقيق لأنهما عاشا الطفولة في بيت واحد)، يروى أنه كان دائماً محاطاً بكوكبة من الأطفال يقودهم، ويرتبط بهم، ويرتبطون به، على الدوام ، حتى أن جيرانهم- فضلا عن أفراد أسرتهم نفسها- حينما كانوا يسمعون صياح الأطفال وضجيجهم، كانوا يقولون على الفور: ها قد جاءكم صدام، غير أنه لم يكن فظاً ولا شرساً مع "قاعدته الجماهيرية" الأولى، وأهل المنطقة يروون أنه كان على العكس، رقيقاً مهذبا في سلوكه، أما مع أطفاله فلعله كان أكثر من ذلك: غيرياً يؤثرهم في أحيان كثيرة على نفسه، فعندما كان يرى واحداً من رفاقه يرتدي

سترة بالية أو ممزقة، كان يخلع سترته ويعطيها له، ويعود إلى بيته بدون سترة ، وحينما يسأله أهله أين سترتك يا صدام؟ يقول في بساطة، وكأنه أدى واجباً ضرورياً كان مطلوبا منه: أعطيتها لصديقي لأن سترته كانت غير لائقة، ولا يأبه بعد ذلك بكلمات تأنيب تنهال عليه .. من علمه في تلك اللحظة الباكرة من طفولته قول المسيح : من كان لديه ثوبان فليعط أحدهما لمن ليس له؟. ولكن الطفل الصغير الذي كان ينطوي في نفسه على أخلاق الفروسية، كان فارساً بحق، لا شيء كان يسعده، ويثير التوهج في عواطفه، سوى اعتلائه صهوة فرسه . كانت فرسه من أشد الكائنات الحية قرباً من نفسه، في الحقول المجاورة كان يمتطيها ويركض بها، ويدللها، وهي أيضاً كانت تحنو عليه.. إن العلاقة بين الإنسان والحيوان يمكن أن تبلغ في بعض الأحيان ما لا تبلغه العلاقة بين الإنسان والإنسان، من الحب والمودة والألفة والصميمية والعطاء المجاني.. ومع ذلك كان على الطفل الغض أن يتلقى صدمة قاسية من أولى الصدمات في حياته ، إن فرسه قد ماتت، وقد بلغه خبر موتها وهو في السنة الخامسة ابتدائي وكان يومها في تكريت حيث يتلقى الدراسة في بيت خاله وكانت فرسه في قرية العوجة بانتظار عودته أيام الجمع والعطلتين الربيعية والصيفية، ولأول مرة لا يستطيع السيطرة على انفعالاته، إن المرء يقف عاجزا دائماً أمام الموت، إنها لحظة عميقة من الشعور بالوحدة والفقدان والغياب الشامل، وشلت يده على الفور، وبقي على هذه الحال أكثر من عشرة أيام، كان أهله يعالجونه بالوصفات الطبية الشعبية حتى عادت الدماء إلى السريان في ذراعه من جديد ، ويومها كانت سحابة داكنة من الحزن الغائر في النفس، تطل من عينيه اللامعتين ببريق الدمع.

2- من القرية إلى المدينة

لم يكن من عادة الأسر الفلاحية الفقيرة أن ترسل بأبنائها إلى المدارس، في ذلك الزمان . كان على الطفل أن ينشأ في قريته، ويتعلم، فحسب أصول الفلاحة، كي يساعد ذويه، ويكتسب المهنة التي يمكن أن يكسب منها عيشه . ولم تكن المدارس نفسها كثيرة ولا منتشرة في تلك المناطق الزراعية. وآلاف الأطفال الذين كان يمكن أن يخرج منهم رجال علم وفكر وفن وسياسة، كانوا يتحولون في تلك السنوات إلى مجرد أرقام في جيش الفلاحين الفقراء الأميين المنسيين دائماً من تفكير وتخطيط رجال الدولة الرجعية في العاصمة البعيدة.

ولقد كانت كل الظروف، وعوامل البيئة المحيطة، قمينة بأن تجعل من صدام حسين، الطفل اليتيم، ربما أكثر من غيره، واحداً من ذلك الجيل المنسي الضائع، وأن تمتص الأرض الظمأى وما يحيط بها من صحراء عاتية، رحيق حياته كلها، وتخمد شعلة ذكائه، لولا أن مقاومة الظروف، والمحاولة الدؤوبة لتجاوزها باستمرار، كانت بعض فضائله.

في عام 1947، وكان حينذاك في العاشرة من عمره، يعيش مع عمه الحاج ابراهيم في قرية تدعى "الشويش "، زارهم طفل في مثل عمره تقريباً، وكان قريباً لأمه- ابن عمها-، وكانت تلك الزيارة بما ترتب عليها علامة أساسية فارقة في تطور حياته.

في الباحة الخارجية، أمام البيت الطيني الصغير، جلس الطفلان الصغيران يتسامران، وإذا بصدام يسمع من رفيقه حديثاً مختلفاً عما اعتاد أن يسمعه من رفاقه الآخرين ، قال له رفيقه الطفل أنه يذهب إلى المدرسة بانتظام، وأنه في الصف الثاني الابتدائي، ويستطيع الآن أن يقرأ ويكتب، وبإصبعه الصغير، راح يكتب فوق التراب اسمه، ثم ينظر إليه ويشرح له حروف الأبجدية ويكتب أمامه الأع داد، انظر، هذا اسمي، وهذه ألف، باء، تاء ... أما هذه فثلاثة، أربعة،. خمسة 1000 الخ.

سرح الطفل صدام، وغابت عيناه في الأفق البعيد ، إن عالماً غريباً ساحراً ومدهشاً كان يتفتح في وعيه لأول مرة في تلك اللحظة، هو أيضاً لا بد أن يذهب إلى المدرسة ويتعلم كيف يكتب اسمه، وكيف يحفظ جدول الضرب ويعرف قواعد الحساب، وعقد حاجباه، وبدت في عينيه نظرة تصميم حادة، لم يكن بوسع رفيقه أن يفهمها.

في اليوم التالي، قرر أن يعرض الأمر على أسرته، وكان طبيعياً أن يواجه الرفض، وبدا له أن لكل يوم يمر ثمناً لا يستطيع أن يعوضه ، لقد فتحت المدارس أبوابها، وبدأ التسجيل للعام الدراسي، وخياله كله يتركز في تلك المقاعد التي يجلس عليها التلاميذ ليتعلموا، وعرض على أهله أن يذهب إلى بيت خاله في تكريت الحاج خير الله، ولكن هذا العرض قوبل مثل سابقه بالرفض الحازم مع غير قليل من الزجر ، غير أن هذا الرفض الزاجر لم يثنه عن قراره، واستقر رأيه على أن يوقف التفاوض مع أهله، وأن ينهج أسلوباً آخر.

عندما هبط الليل، وأرخى الظلام سدوله، انسل الطفل الصغير ذو العشرة أعوام من فراشه، وحمل متاعه القليل على كتفه، وخرج ليواجه قدره الجديد، وحيد اً كما هو شأنه دائماً، سلك طريقه نحو منطقة "الفتحة" التي يعرف أن له بها بعض أولاد عمه الذين يعملون حراساً في إحدى الشركات هناك، قال في نفسه: سيكونون دليلي لمعرفة الطريق إلى تكريت. وكانت الفتحة تبعد عن قريته مسيرة ساعتين سير اً على الأقدام، وصلها قبل أن تبزغ الشمس من وراء الأفق ، ودهش أقرباؤه عندما دق في تلك الساعة المبكرة بابهم، ما الذي جاء بك يا صدام؟. ماذا جرى؟ قال لهم بعزم وتصميم أنه قرر أن يلتحق بالمدرسة وأهله لا يريدون، ولذلك فـإنه في طريقه إلى تكريت، حيث يستطيع هناك أن يحقق هدفه، وذكرهم بأنهم هم أنفسهم كانوا من قبل في المدرسة و أن أهلهم أجبروهم على أن يوقفوا مسيرتهم، ولم يعترض أقرباؤه، بل شجعوه، وصحبوه إلى موقف السيارات، وأركبوه سيارة أجرة تأخذه إلى منتصف الطريق، وأوصوا السائق أن يركبه سيارة أخرى توصله إلى تكريت، ولم ينس أقرباؤه أن يزودوه بعدة الأمن في الطريق، مسدس، وكان أول مسدس يمتلكه في حياته.

عندما بلغ تكريت، كان يعرف الطريق إلى بيت خاله، حيث شاهد انتقالهم من دار قديمة إلى هذه الدار قبل أربع سنوات عندما كان عمره ست سنوات وهكذا اهتدى إلى بيت خاله دون دليل يقوده إلى هناك، ووجد الباب مفتوحاً فدخل، واستقبلته الدهشة مرة أخرى في عيونهم، ما الذي جاء بك يا صدام؟ وكيف جئت؟ ومن الذي أتى بك؟ وماذا جرى؟ وما هي القصة؟ ببساطة، وبهدوء، وكأنه يدلي بقرار نهائي لا يرد، قال لهم: أريد أن أتعلم.

لم يجد الرفض منتصباً أمامه هذه المرة، على العكس لقي قراره ترحيباً وتشجيعا، حسناً فعلت يا صدام ، إن أهلك مخطئون، لا بد لك من أن تتعلم. غداً لا بد أن تسجل اسمك في صفوف الدارسين، وتداوم في مدرستك . كانت النبرات التي يسمعها جديدة في أذنيه، إن فصلا جديدا من حياته قد بدأ. والحق أن التأثير الخاص لخاله قد لعب دوراً متميزاً في مستقبله. كان خاله أكبر رجل في العائلة، وكان لحسن حظه متعلماً، تخرج معلماً ثم دخل الكلية العسكرية بعد ذلك وتخرج من كلية الضباط، وإن لم يستمر في عمله طويلاً، فلقد اعتقل في ثورة رشيد عالي الكيلاني، وقضى في غياهب السجن خمسة أعوام، ولذلك فإنه مثل أفراد أسرته جميعاً، كان ينظر إليه دائماً كمثل أعلى جدير بأن يحتذى، وهو يذكر الآن كيف كان يسأل أمه حين كان يعيش في كنفها : أين خالي؟ ولماذا لا نراه، وكانت تحكي له أين راح؟ ولماذا راح؟ ثم تعلمه أول دروس تعلمها في الوطنية، والحقد على السلطة الرجعية العميلة، والحقد على الاستعمار الإنجليزي الذي كان جنوده يدنسون تراب الوطن حينذاك . وكثيراً ما كانت تمتد آفاق هذه الدروس إلى الماضي، حيث تحكي له كيف كان أجداده القدامى يقاومون في تلك المناطق الفلاحية سطوة الاحتلال التركي وظلمه وظلامه العثماني. إن أسرته قدمت في صراعها ضد الأتراك كوكبة من الشهداء، كان منهم والد جده لأمه، واثنان من إخوته معه، كان أحد هما في الرابعة عشر من عمره، والثاني في السادسة عشر، يوم اصطدم بهم الأتراك وقتلوهم جميعاً وقتلوا والد جده وإخوة جده الاثنان. ولم تتوقف معاركهم ضد الأتراك ، بل لقد أصبح للمعارك ضد الأتراك بعد هذه الحادثة المروعة معنى آخر مضافاً هو الأخذ بثأر العائلة والعشيرة، وفي إحدى المناسبات قتلوا ثلة من الضباط والجنود الأتراك وكان في مقدمة من تصدى للأتراك في هذه المعركة جده لأمه طلفاح ، وهكذا هجمت عليهم جحافل الأتراك ، وحرقت بيوتهم جميعاً، ففروا إلى الجبال في شمال العراق، وبعد فترة عادوا من جديد ليواصلوا نضالهم ومقاومتهم ، لقد كانت أقاصيص مهده وطفولته، هي أقاصيص النضال والمقاومة، وحكايات السجون والمعتقلات، ولسوف تتبلور كل هذه الأقاصيص والحكايات لتشكل

في وعيه المبكر معاني أساسية ستوجهه وتقوده على مدى حياته كلها : الحقد على الاستعمار، الحقد بنفس الدرجة على السلطة الرجعية الغاشمة، المقاومة من أجل تحرر الوطن، النضال من أجل تحرير المواطن من الفقر والإذلال وسحق الكرامة.

في تكريت تابع دراساته الابتدائية، ولما انتقل خاله إلى بغداد بقي وحده في تكريت في دار خاله لمدة سنتين لمتابعة الدراسة ثم انتقل بعد ذلك إلى بغداد بعد أن أكمل السادس ابتد ائي والأول المتوسط، والتحق بمدرسة الكرخ الثانوية، وكانت تلك المدرسة واحدة من القلاع الوطنية في العراق كله، ولسوف تكون على الدوام مخزن الذخيرة البشرية التي ستتفجر ضد الاحتلال، وضد عملائه وأذنابه، وسيجد في إطارها الملتهب، ذلك الشاب الصغير الذي تنتفض عروقه وطنية عارمة تدفعه إلى الاستعداد في كل لحظة للتضحية بحياته نفسها من أجل بلاده، البيئة المؤاتية لتفتح مشاعره وأفكاره وتوجهاته السياسية ونزعاته القيادية الكامنة ، ولقد كانت اللحظة التاريخية حبلى بكل إمكانيات التغيير، على صعيد الوطن الصغير، والوطن الكبير، وكان صدام حسين يومها في الصف الرابع الثانوي يتابع دراساته بتقدم ونجاح. غير أن بغداد حينذاك كانت تغلي فوق فوهة بركان، والأقدار كانت تتجمع في الأفق، وتضمر له دوراً آخر.

3- 14 تموز والرهان الخاسر

لو أن إنساناً داخله الشك في وحدة هذه الأمة، ووحدة مصيرها، فإن عليه أن يستعيد فحسب صورة الوطن الكبير في الخمسينات، حتى يوقن بأن الأساس الأقوى والأعمق بين جماهيرها، والفكر الأرسخ والأشمل بين طلائعها، هو إحساس الوحدة، وهو فكر الوحدة . فعندما كان جمال عبد الناصر ينادي على العرب من قلب القاهرة : إن هبوا لنحرر وطننا ونتوحد، كان العرب جميعاً يتحولون إلى رجل واحد، وصوت واحد، وهدف واحد، من العراق حتى الجزائر . وفي منتصف الخمسينات، بعد باندون غ، اشتد تصاعد حركة التحرر العربية، واتسع لهيبها، وكانت المعركة تقترب من لحظاتها الحاسمة في مصر . أمريكا ترفض تسليح النظام الوطني في مصر بعد أن ثقلت وطأة حملته على حلف بغداد الاستعماري، ودالاس يسحب عرض تمويل السد العالي، والقاهرة تكشف عن خرقها لاحتكار السلاح بعقد صفقة التسلح الشهيرة لأول مرة مع المعسكر الاشتراكي، وعبد الناصر يدشن نفسه بطلا قومياً بوقوفه في عيد الثورة المصرية عام 1956، ليفاجيء عالم الاستعمار القديم المتهاوي، بل ويفاجيء العالم كله، بأن مصر المناضلة قد استردت من هذه اللحظة قناة السويس، وأن العرب قد اقتحموا التاريخ المعاصر من أوسع أبوابه، بقدرة وجدارة.

ولا أحد يمكنه أن يتصور عمق عاطفة الانتصار التي هزت وجدان العرب جميعاً في كل أقطارهم، كما أن التاريخ قد سجل في يومياته، وفي مذكرات قادة أوروبا وأمريكا، أيامها، كيف كان الارتباك الذي ساد صفوف الدولتين الاستعماريتين القديمتين إنجلترا وفرنسا شاملا وشديداً، لم تكن حملة السويس التي قادتها الدولتان الاستعماريتان ومعهما ربيبة الاستعمار وخادمته "اسرائيل "، إلا عملا أحمق من قوى لفظها تطور التاريخ، وقادها إلى حتفها في السويس لتستخرج بنفسها شهادة وفاتها ، وربما كانت ردة الفعل العربية- وفي صفوف العالم الثالث الوليد آنذاك- هي إحدى إيجابياتها، لو كان من الممكن أن تكون للحماقات الاستعمارية أحياناً بعض الإيجابيات بالنسبة للشعوب، لقد تحول المناخ العربي كله في تلك الأيام المجيدة إلى مناخ وطني وقومي حار وملتهب، وبدا أن أكثر طموحات وأهداف شعبنا العربي في كل مكان جديرة بأن تتحقق، ويمكن أن تتحقق، بعد أن صارت الإ مبراطوريات الاستعمارية بحق - وبحكم قوانين التاريخ نفسها- نموراً من ورق.

في ذلك المناخ الوطني والقومي الحار والملتهب، ولد صدام حسين السياسي المناضل، أيامها كان طالباً في ثانوية الكرخ في بغداد، وإذا بأنباء العدوان الثلاثي على مصر تنقلها الإذاعات والصحف، فتتحول بغداد كلها إلى شعلة من الحناجر الصارخة، والأيادي المضمومة، والأجساد المتراصة التي تواجه، بعنف لا مثيل له، جنود نظام نورى السعيد العميل والرجعي، وتطالب بإسقاط حلف بغداد، وإسقاط النظام الذي ينفذ مخططات الاستعمار، وتأييد ومساندة مصر المناضلة ،

أن وعي المناضل الشاب كان قد بدأ يتبلور، ومعالم طريقه أخذت تتحدد، وشيئاً فشيئاً، بخطى واثقة ويقينية، راح يقترب من المسرح الذي ينتظره، والذي سوف يلعب عليه الدور التاريخي، الذي هو دوره.

لم يمض بعدها أكثر من أشهر قلائل حتى كان صدام حسين منخرطاً في حزب البعث العربي الاشتراكي، في تلك المرحلة كان العراق كله ينتظر، في أية لحظة انفجار البركان الذي ما ينفك يطلق حممه، وفي كواليس الأحزاب السياسية كانت معالم "جبهة الاتحاد الوطني" قد بدأت في التشكل منذ فبراير- شباط عام 1957، وأيامها كان العراق يضم خمسة أحزاب سياسية هي: حزب البعث العربي الاشتراكي، الحزب الشيوعي العراقي، حزب الاستقلال، الحزب الوطني الديموقراطي، الحزب الديموقراطي الكردستاني، ومن تلك الأحزاب الخمسة تشكلت الجبهة.

ما الذي كانت تسعى إليه تلك الجبهة من أهداف؟ كانت تلك الأهداف "هي التي أجمعت كل القوى الوطنية وجماهير الشعب على حدها الأدنى والتي يمكن تلخيصها بالتحرر الكامل من النفوذ الاستعماري وبناء اقتصاد وطني مستقل ومزدهر وتقدمي، وبتصفية الإقطاع تصفية كاملة، وبإبعاد الرأسمالية الاحتكارية المرتبطة بالاستعمار عن الحكم، ومنعها من اضطهاد الطبقة العاملة، وإخضاعها للتخطيط الوطني التقدمي، وبتحقيق صيغة ديموقراطية ملائمة للظروف الوطنية، وبإرساء الوحدة الوطنية بين العرب والأكراد، على أسس ديموقراطية راسخة، وببناء جيش قوي مقاتل، واعداده لمعركة فلسطين والأجزاء السليبة الأخرى من الوطن العربي، وبالإسهام الفعال في النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية وبتحقيق صيغة وحدوية عملية وفعالة مع الأقطار العربية المتحررة".

في 14 يوليو- تموز عام 1958 انفجر البركان، وسمع دويه في أربعة أركان الأرض، إن انتصاراً تاريخياً عربياً قد تحقق من خلال الوحدة النضالية بين الشعب العراقي عبر أحزابه السياسية وجيشه الوطني، وسقط النظام الرجعي العميل، وعلق الشعب رؤوسه على أعواد المشانق، واندك صرح آخر من صروح الاستعمار في المنطقة العربية، وبدا أن المشرق العربي يوشك أن يصير في مراكزه الأساسية أرضا محررة، يومها قرر جمال عبد الناصر، وكان في زيارة ليوغوسلافيا، أن يعود فوراً إلى القاهرة، كان الحدث التاريخي الضخم قد هزه هزاً عميقاً، فها هو النظام الذي عاداه وجعل من أرضه قاعدة للهجوم على مصر يسقط تحت أقدام الجماهير العربية، ولكن الرئيس تيتو نصحه بألا يتوجه مباشرة من يوغوسلافيا إلى مصر عن طريق البحر كما جاء، فالأساطيل الاستعمارية تتحرك بعنف- وقد استفزتها الأحداث- في مياه البحر الأبيض، من "بريوني" اتجه عبد الناصر إلى موسكو، ومن موسكو إلى القاهرة، وفي عاصمة الجمهورية العربية المتحدة أعلن قائدها بقوة وحزم، وبنشوة تاريخية عارمة "إن أي اعتداء على الجمهورية العراقية هو اعتداء على الجمهورية العربية المتحدة".

كان العرب أيامها يعيشون أمجد اللحظات في تاريخهم المعاصر، فبعد أن تحقق بزخم جماهيري هائل حلم الوحدة بين مصر وسوريا في فبراير- شباط عام 1958، ها هي نجمة ساطعة جديدة توشك أن تنضاف إلى علم الدولة الوحدوية الجديدة. ولم تكن الوحدة في مفهومها الطبيعي والمنطقي، تبدو عصية على التحقق بالنسبة لأي قطر قررت قواه الحية المناضلة أن تحارب الاستعمار حتى النهاية، كانت الوحدة وجهاً آخر من وجوه التحرر، وكان النضال التحرري ينطوي في جوهره على نضال وحدوي.

وحين تفجرت ثورة تموز- يوليو عام 1958، كانت قيادتها تعكس إلى حد كبير صورة الوضع الذي كانت عليه الحركة القومية العربية من ناحية، وشكل الواقع الخاص للحركة السياسية الوطنية داخل العراق من ناحية أخرى، فالطابع القومي الذي وسم الثورة في بداياتها لم يكن مصدره ثقل الاتجاه القومي في حركة النضال السياسي داخل العراق فحسب، وإنما كان يستمد روحه ومنطقه واندفاعه من المد القومي على صعيد الساحة العربية بأجمعها، والذي جعل من نضال كل قطر على حدة حلقة في النضال الكلي للوطن العربي بأسره.

ولقد كان من أبرز سمات ذلك الطابع القومي للثورة في بداياتها الأولى هو إعلانها عن التزامها بالارتباط القومي المصيري مع الأمة العربية، والتزامها أيضاً بالأهداف القومية العربية للشعب في القطر العراقي، وانعكس ذلك في

التمثيل المتميز للاتجاه القومي في أول حكومة تشكلت بعد قيام الثورة، بينما كان تمثيل الحزب الشيوعي بشكل خاص يعتمد على بعض العناصر "الديموقراطية" المحسوبة عليه.

ويجدر بنا هنا أن نتساءل: ما هي تقويمات الأحزاب السياسية المختلفة للثورة فيما انعكس على مواقفها وسلوكها النضالي؟ إن خمسة مواقف عكست بعد الثورة خمسة تقويمات مختلفة كان اختلافها إلى حد التعارض ثم التناقض ثم التناحر يزداد يوماً بعد يوم.

* إن القيادة القطرية لحزب البعث العربي الاشتراكي اعتبرت الثورة تحقيقاً للطموح القومي العربي للقطر العراقي، وفي مقدمته حينذاك تكثيف العلاقة مع الجمهورية العربية المتحدة الفتية والوصول بها إلى درجة الوحدة، وانطلق الحزب في هذا التقويم من مفهومه الأيديولوجي المحوري وهو أن نمو حركة الثورة العربية في أي قطر لا يتحقق بمستوى الطموح إلا من خلال حركة الثورة العربية، ولقد كانت دولة الوحدة تمثل في تلك الفترة إحدى صيغها التاريخية، ذلك أن الانكفاء القطري للثورة يعني ضمورها وذبولها وفي النهاية موتها، لأنها ستكون في تلك اللحظة فريسة سهلة لقوى الرجعية المحلية – وفي مقدمتها القوى البورجوازية التي تجد في الوحدة خطراً يهدد مصالحها- بنفس القدر الذي تكون به عرضة للمحاصرة والاحتواء والخنق من جانب الإمبريالية وعملائها. ولقد اعتبرت نشرة سرية داخلية أصدرتها آنذاك الأمانة العامة للقيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي في مارس- آذار عام 1959 "إن التحرر من الاستعمار والرجعية يرشح القطر العراقي للانضمام إلى دولة الوحدة ". وذكرت "إن الفروق التي خلقها وضع التجزئة ليست هي التي تحول دون ذلك فحسب، بل إن المصالح الاقتصادية والسياسية للرجعية الداخلية والاستعمار هي التي تعارضها وتحاربها بتصميم ووعي ". وأكدت "إن الوحدة عملية ثورية يتطلب تحقيقها تخطي كل الاعتبارات المحلية والمصالح المرتبطة بالتجزئة".

غير أن هذا المنطلق الأيديولوجي القومي لم يحجب عن الحزب رؤيته الوطنية للمشكلات الداخلية التي تعانيها جماهير الشعب داخل القطر العراقي، والتي تمثلت في إلحاحه على الإصلاح الزراعي الجذري الذي كان هدفاً أساسياً من أهداف القوى الوطنية قبل الثورة، وفي تركيزه على المطالبة بالديموقراطية في العمل السياسي، فضلا بطبيعة الحال عن بقية الأهداف التي أجمعت عليها القوى الوطنية في مجموعها.

* أما الحزب الشيوعي العراقي الذي يصدر تقويمه للوضع داخل القطر من منطلق أيديولوجي مغاير، فلقد كانت له مواقفه الفكرية والعملية المتعارضة مع حزب البعث العربي الاشتراكي، سواء على الصعيد القومي العام، أو على الصعيد القطري المحلي.

من البداية رفض الحزب الشيوعي العراقي شعار الوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة، الذي كان طاغياً ومهيمناً على المسرح السياسي داخل العراق كله. ورفع بدلا منه شعاراً ضامراً هو: "الاتحاد الفيدرالي" ولم ينس- على طريقته- أن يضيف إليه "والصداقة السوفيتية"، ثم عاد مرة أخرى وخفض الاتحاد الفيدرالي إلى شعار آخر أكثر ضموراً – قد لا ترفضه حتى الدول العربية الرجعية- وهو شعار "التضامن العربي".

وبالمقابل رفع شعاراً داخلياً براقاً في ظاهره هو: "واجبنا صيانة الجمهورية والاستقلال الوطني"، وكأن الوحدة العربية تمثل تهديدا للجمهورية أو تبديداً للاستقلال الوطني، واعتبر الحزب الشيوعي هذا الشعار بمثابة المبدأ الأعلى الذي ينبغي أن تشتق منه سائر المبادىء الأخرى، وتصدر عنه كافة الخطوات التنفيذية حتى على صعيد تغيير البنية الاجتماعية الداخلية نفسها، لقد كتب عامر عبد الله عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي في 16 فبراير- شباط عام 1959 يقول: "ليس من المجدي في أيامنا هذه الإفراط في الحديث عن دولة عربية واحدة، مثلما هو مجد الحديث عن أمة متحررة، تستطيع أن تصون استقلالها، إن تحقيق حلم العرب في توحيد أمتهم ليس أمراً يسيراً أو قريب المنال، إن البلدان العربية لا تسير على وتيرة واحدة، لا في حركة تطورها العام، ولا في مسيرتها نحو الوحدة، وواقع الحياة يدل على أن البلدان العربية ستستمر في مسالك متعددة متباينة "، ثم ينتهي إلى استخلاص موقفه النظري الذي

انبنت عليه كل المواقف العملية الصادرة عن الحزب الشيوعي بعد ذلك : "إن التجزئة أصبحت واقعاً، وإن الظروف الخاصة لا يمكن تجاهلها، لقد أعطت تجربة الوحدة السورية- المصرية مردوداً سلبياً في وقف سوريا عن سيرها الحثيث في طريق التطور العام، وردها خطوات عديدة إلى الوراء".

بل إن بياناً صدر عن المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي نفسه بتاريخ 3 سبتمبر- أيلول عام 1958 يقول: "إن التفكير في الانضمام للجمهورية العربية المتحدة، يقلق جماهير الشعب، لأن الانضمام لن يوفر للا قتصاد والرأسمال الوطني العراقي فرصاً كافية للازدهار والتطور، ولن يوفر شروطاً عادلة للتعاون الاقتصادي بين العراق والجمهورية العربية المتحدة، نظراً لاختلاف درجة تطور كل منهما".

ويبدو واضحاً من النصين السابقين إن الشيوعيين العراقيين- في حزبهم الرسمي- كانوا يعتبرون التجزئة الإقليمية أمرا نهائياً لا يمكن تخطيه أو تجاوزه. وإن التفكير- مجرد التفكير- في الانضمام للوحدة العربية التي كانت قائمة بالفعل في ذلك الوقت بين قطرين ليسا متساويين في درجة تطورهما، يقلق جماهير الشعب، ولكن أية جماهير تلك؟ الجماهير التي تخشى أن تهدد الوحدة طموحاتها الاقتصادية؟ جماهير الرأسمال الوطني العراقي، ومن الطريف أن يدافع حزب شيوعي عن طموحات الرأسمالية، وأطرف منه انتظار أن تحقق "البورجوازيات العربية" تطورها وازدهارها حتى يمكن التفكير في الوحدة العربية بحسب المغزى الذي ينطوي عليه المفهوم السابق ، ولا أحد يمكن أن يصدق أن جماهير الشعب هي جماهير الرأسمالية أو البورجوازية حتى لو أضيفت لها صفة الوطنية، فجماهير الشعب الحقيقية- الجماهير الكادحة- لم يكن لديها ما تخسره، أو يمكن أن تخسره في المستقبل، حتى تخشى من الوحدة. ومن العبث أن نتصور قيام وحدة شعبية عربية على أساهـا وحدة البورجوازيات العربية المتكافئة في درجة التطور ، أقل ما يمكن أن يقال أنها ستكون وحدة المستغلين (بكسر الغين) لفرض مزيد من الاستغلال على "جماهير الشعب". وعلى الرغم من أن هذا المفهوم للوحدة الذي كان يتبناه الحزب الشيوعي العراقي يصدر في جوهره عن المفهوم الستاليني للقومية والوحدة، والذي يعتبر القومية ظاهرة رأسمالية، والوحدة إنجازا للبورجوازية، على طريقة أوروبا في القرن التاسع عشر، فالواقع أن الحزب الشيوعي العراقي كان يتضور- برفضه للوحدة وتأييده ودعمه للنزعات الفردية المطلقة لدى عبد الكريم قاسم- إنه يمكن أن يقترب من السلطة ويصبح شريكاً فعلياً فيها، ثم يغدو بعد ذلك منفرداً بها، لقد كان رفض شعار الوحدة يجد في نفس "الزعيم الأوحد"، كما كانوا يدعونه حينذاك، صدى مريحاً طيباً، وأهم من ذلك تشجيعاً وتحبيذاً واحتضاناً للقائلين به.

ولقد تصورت قيادة الحزب الشيوعي آنذاك، إنها يمكنها تحقيق هدفها عن طريق التحالف المصيري مع عبد الكريم قاسم، والانتقال إلى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة البورجوازية- وهو أمر واضح التناقض مع أساس مفهومها الظاهري لرفض الوحدة انطلاقاً من التطور اللا متكافيء للبورجوازية العراقية مع البورجوازيات العربية الأخرى- مستلهمة في ذلك إحدى مقولات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي عام 1956، التي لم تكن قد وجدت فرصتها لامتحان مصداقيتها في التطبيق التاريخي بعد، وهي: "عدم حتمية المرور بالمرحلة الرأسمالية من التطور، بالنسبة للبلدان المتخلفة، وتحقيق ذلك بقيادة الطبقة العاملة وحزبها الشيوعي" (اتحاد الشعب) 1959/3/11.

ولذلك لم يهتم الشيوعيون بتدعيم تحالفاتهم بالأحزاب الوطنية الأخرى داخل العراق ، ولم يشغلوا أنفسهم بتأكيد جبهة الاتحاد الوطني بعد قيام الثورة، كان الهم الأساس هو ما أسموه صيانة الجمهورية والاستقلال الوطني ، حتى إنهم في ردهم على مطالبة القوى الوطنية بالإ صلاح الزراعي الجذري قالوا : "إنما يخضع هذا المطلب الجوهري لمهمة أعظم وأهم، وهي مهمة صيانة الجمهورية واستقلا لها، وكل خطوة في ميدان الإ صلاح الزراعي سوف تخضع لهذه المهمة الأساسية". وفي ردهم على مطالبة القوى الوطنية بالديموقراطية في العمل السياسي لتحقيق أهداف الشعب الاجتماعية التي قامت من أجلها الثورة كتبوا يقولون: "إن هذه الخلافات والتناقضات، سواء في المصالح أو الأفكار، هي بالتأكيد في المرتبة الثانية من خطورتها الموضوعية، على مسيرة الثورة، وتقدم البلاد واستقرارها. فمهما بلغت الخلافات في الريف

بين الفلاحين والملاكين، وفي المدينة، بين العمال وأرباب العمل، فإنها تبقى خلا فات ثانوية، وممكنة الحل في إطار المصلحة المشتركة، ولمصلحة صيانة الجمهورية وأمنها واستقرارها".

ولسوف يعود الحزب الشيوعي، بعد ذلك، إلى الاعتراف بأنه "اتخذ مواقف يسارية منعزلة في معالجة الوضع الديموقراطي في البلاد، ووقع في خط المبالغة في قوته الذاتية والتقليل من دور السلطة والقوى الوطنية في صيانة الجمهورية، إذ اعتبر نفسه وعبد الكريم قاسم، وحدهما، القادرين على صيانة الجمهورية، وبذلك استبعد القوى الوطنية ذات الدور الفعال والمؤثر في مجرى الأحداث . غير أن هذا النقد الذاتي – الذي لم تسلك قيادة الحزب الشيوعي حتى بعد صدوره حسب مقتضياته– كان قد فات أوانه . فالصدوع كانت قد بدأت تظهر بقوة، والجسور كانت قد أخذت تتهاوى، والمأساة التاريخية كانت قد راحت فصولها تتكامل ، ولسوء الحظ لم تدرك قيادة الحزب الشيوعي العراقي، في ذلك الوقت، وسط أوهام الاقتراب من السلطة، ونشوة الهيمنة المؤقتة، الخادعة، على المؤسسات السياسية الجماهيرية ، إن الثمن سيكون فادحاً، وإنه ليس العراق وحده هو الذي سوف يدفعه، بل ستدفعه أيضاً كل القوى القومية والتقدمية في المشرق العربي بأسره.

* بالنسبة لحزب الاستقلال، فإن العقم الفكري، والفراغ الأيديولوجي الذي كان يعانيه، جعله يفقد توازنه ويسقط في الشلل والارتباك أمام اندفاع الأحداث، الأمر الذي بدا معه وكأن مهمة هذا الحزب قد انتهت تاريخيا بقيام الثورة، بينما ، اندفع ما تبقى من قواعده نحو الانخراط في حزب البعث أفواجاً.

* أما الحزب الوطني الديموقراطي، فإنه وجد الفرصة مواتية له للنمو المؤقت والانتشار النسبي، بوصفه ممثلاً للطبقة الرأسمالية المتوسطة، وعلى الرغم من أنه كان يرى في نمو الحزب الشيوعي خطراً يهدده على المدى الاستراتيجي، ويحد من طموحاته الطبقية كما كان يتصورها، ف إنه كان يرى في شعارات الوحدة العربية الخطر الأكثر إلحاحاً ومباشرة، مما دفع بتناقضه مع البعث إلى الأما م، وبتأجيل تناقضه مع الشيوعيين، غير أنه كان يفتقر إلى التماسك الأيديولوجي الواضح، ولا يتمتع بوحدة الموقف السياسي دائماً، حتى على صعيد قيادته العليا.

وإذا كانت تلك هي السمات العامة التي ميزت مواقف الأحزاب الخمسة التي كانت تمارس نشاطها في الساحة السياسية العراقية بعد ثورة تموز– يوليو 1958، فإن المحصلة المباشرة لمجمل هذه المواقف هو تصدع الجبهة ثم انفراطها عملياً.

إن محاولة قد جرت في شهر نوفمبر– تشرين الثاني 1958، من جانب القوى الوطنية لوضع ميثاق عمل مشترك يحفظ استمرارية العمل الجبهوي انطوى على المبادىء الأساسية التالية:

(1) إن العراق جزء من الأمة العربية، وإنه سيسعى إلى بلوغ أفضل الروابط مع الجمهورية العربية المتحدة في المستقبل، وذلك لتحقيق الوحدة العربية الشاملة.

(2) إن الجبهة ستسعى لتطبيق ما جاء في الدستور المؤقت الصادر في 27 تموز/ يوليو عام 1958 الخاص بالحقوق القومية للشعب الكردي.

(3) ضرورة اتباع سياسة وطنية من قبل الحكومة وتحقيق مطالب الشعب بالتحرر السياسي والاقتصادي من الاستعمار.

(4) الأكيد على دعم الثورة والجمهورية، وعلى ضرورة قيام حياة ديموقراطية سليمة، تعطي للأحزاب السياسية حق العمل السياسي بصورة علنية.

ومع ذلك، فماذا كانت النتيجة العملية أو التجسيد الواقعي لهذا الميثاق؟ لقد دعا حزب البعث العربي الاشتراكي إلى دعم النضال المشترك ووحدة الصف بين جميع الأحزاب والهيئات والقوميات والمذاهب على أساس مبادىء الثورة وأهدافها ، غير أن الحزب الشيوعي وقف من هذه الدعوة موقفاً سلبياً، واستقبل الميثاق الجديد بفتور، مشدوداً إلى أوهامه التي زينت له إمكانية احتواء عبد الكريم قاسم، والانفراد بالسلطة من خلال دكتاتوريته الفردية المطلقة ، في الوقت الذي لم

تكن الأحزاب الأخرى تشكل– ربما باستثناء الحزب الديموقراطي الكردستاني "البارتي"– ثقلا أساسيا يرجح كفة الميزان.

كان الرهان الخاسر قد بدأ، وانطلقت "الحبال"، المجنونة في الشوارع، مثل أفاع مسعورة، تزحف في غابة لا تطأها قدم إنسان.

إن شمس الثورة تسقط في الأفول، لقد حانت ساعة الصلب، والعراق سوف ينزف دمه.

4- شراع الثورة الغارق

كثيرة هي الثورات التي وقعت في مراحل التاريخ المختلفة، وسلكت طريق العنف، وتذوقت طعم الدم ، بيد أن العنف كان موجهاً ضد أعدائها، والدماء التي سالت كانت، بمعنى ما من المعاني، ضرورة لشجرة الثورة حتى تمد جذورها، وتعلى غصونها، وتؤتي ثمارها.

غير أن ما حدث في العراق، خلال تلك المرحلة المأساوية الحزينة من تاريخه، كان أشبه بكابوس مرعب في ليلة مظلمة، إن أحداً لا يمكنه أن يتصور كيف يمكن لانحرافات الفكر، وجموده، وانغلاقه على مقولاته الجاهزة، أن تدفع بآلاف البشر إلى أشكال جديدة، همجية، من المذابح الجماعية، والغريب في الأمر أن ذلك جرى في ظل الشعارات التي تكثف أجمل وأنبل ما تحاول أن تصل إليه البشرية: الاشتراكية، إن الإنسانية جمعاء، وفي مقدمتها الإنسانية التقدمية، لم تغفر لستالين– رغم كل إنجازاته الداخلية وفي الحرب العالمية الثانية– ما ارتكبه من جرائم في حق الديموقراطية والحرية وضد من وصفهم بأنهم أعداء التطور الاشتراكي بين جماهير شعبه. وكان للتقرير الذي أدلى به خروشوف في جلسة مغلقة من جلسات المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفييتي، وكشف فيه لأول مرة، حجم تلك الجرائم وأبعادها، وقع الصاعقة على كل من كانت عقولهم وقلوبهم مشدودة إلى الفردوس الاشتراكي الذي كان يحرسه جوزيف ستالين نيابة عن "الأممية"، والانهيارات والانقسامات التي حدثت على أثره في كثير من الأحزاب الشيوعية في أربعة أطراف العالم، كانت تعبيراً تراجيدياً حاداً، على المستوى الجماعي والمستوى الفردي، عن يقظة الوعي بين أحباب الاشتراكية في كل مكان، واكتشافهم فجأة أنهم إنما كانوا يتعبدون لجسد بغير روح، وإنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، وإنما بالحرية والديموقراطية أيضاً.

ومع ذلك، فإن ذلك كله جرى في إطار تجربة تاريخية كانت تقتحم عبودية الإنسان لأول مرة، وعلى الرغم من أن هذا لا يبرر ما انطوت عليه من نقيض لما يفترض أنه جوهرها، فإنه على الأقل يمكن أن يقدم كتفسير– وما أكثر ما قدم كتفسير– لما أصاب التجربة التاريخية من مطاعن في صميمها ، ولكن ما الذي دفع بالثورة العراقية التحررية، بعد شهور قليلة من قيامها بنجاح، وبتضامن كل السواعد الوطنية، وتلاحم كل الأكتاف الحزبية، إلى تلك الحصة؟ لماذا اندفعت، أو دفع بها، بهذه السرعة إلى مشارف مستنقعات الدم التي أوغلت فيها؟ وكيف تحولت كل أهدافها ومثلها النبيلة في الحرية والوحدة والاشتراكية– وكلها وجوه لمنظور واحد– إلى تلك الصراعات الدامية التي تقطر حقداً ومرارة بين جنود الخندق الواحد، وأبناء الحلم الواحد؟

إن ما حدث في مدينة "الموصل" في مارس– آذار عام 1959، ثم ما حدث بعد ذلك في مدينة "كركوك"، في يوليو– تموز 1959، لا يستطيع أن يصفه إلا الراسخون من مؤلفي روايات الرعب، أو كبار كتاب المآسي التاريخية في التاريخ البشري، ولم يكن "الإقطاع" أو "الرجعية" أو "الرأسمالية الاحتكارية"، بل ولا حتى شركات النفط "الاستعمارية"، هم "ضحايا" أو "شهداء" حمامات الدم الوطنية، على العكس، كانت القوى الوطنية والقومية هي التي تسقط بين عقد الحبال المجنونة، وترصف الطرقات والشوارع بأجسادها المنهكة، بينما كان الإقطاع يشد على يدي الرجعية، والرأسمالية الاحتكارية تشرب أنخاب الدم مع الشركات الاستعمارية.

لقد حاول الحزب الشيوعي أن يقيم في الموصل استعراضاً كبيراً لقوته تحت عنوان "مهرجان السلم الكبير"، في اليوم السادس من مارس– آذار 1959، وحشد له آلافاً من المواطنين في قطار مجاني يغادر العاصمة حاملاً لافتة كتب عليها "قطار السلام إلى الموصل"، وظل ينشر على صفحات جريدته شعارات تحريضية من قبيل : "هلموا إلى الموصل للاشتراك في مهرجان السلم الكبير"، "إلى المدينة الباسلة مدينة الأمجاد الثورية"، "قطار السلام يغادر بغداد مساء اليوم".. وبالطبع لم يكن السلام العالمي في خطر، ولا الحرب العالمية على الأبواب.

كان المهرجان مظهراً من مظاهر الصراع العنيف، اللامبرر، ضد القوى الوطنية والقومية الأخرى ، وكان من الطبيعي– وذلك كان هدفه– أن تحدث صدامات بين الشيوعيين والقوى القومية ذات الثقل في المدينة. واجتمع ضباط الجيش بعدها، وقرروا تكليف آمر اللواء الخامس العقيد الركن عبد الوهاب الشواف بالسفر إلى بغداد، ومقابلة عبد الكريم قاسم، لإعطائه صورة عن الوضع في المدينة، حتى يسارع إلى إخماد الفتنة قبل أن تستيقظ. غير أن قاسم كان في واد آخر، وكان يسعده أن تستنفد القوى الوطنية نفسها في الصراع ضد بعضها البعض حتى يزداد استقراره– كما يتوهم– في حكمه. فلم يفعل شيئاً، ولم يقدم حلا للموقف المتوتر سوى بضع كلمات لا تطيب الجراح، والموقف يزداد توتراً.

ومرة أخرى يذهب الشواف إلى بغداد ليلتقي بقاسم، ولكنه يعود كما عاد في المرة الأولى صفر اليدين من أي قرار يعيد الوضع إلى نصابه، وإن كانت حقيبته قد احتوت صورة "للزعيم الأوحد" كتب عليها "إلى أخي النبيل عبد الوهاب الشواف".. بينما الموصل تغلي، وبغداد نفسها تزلزل فيها الأرض زلزالها ، وزراء يستقيلون، ضباط كبار يحالون على التقاعد، "المقاومة الشعبية" تسلط سيوفها على رقاب الناس ، العقيد فاضل عباس المهداوي رئيس قضاة محكمة الشعب يحول القاعة إلى صالة مسرحية تؤدى فيها كل ليلة مسرحية الصراع ضد القوميين في العراق، وضد دولة الوحدة في الجمهورية العربية المتحدة.

ويذهب الشواف مرة ثالثة إلى بغداد، ويلتقي بقاسم أيضا ، فإذا بقاسم يتجاهل كل دواعي الموقف المتوتر الذي جاء إليه من أجله، ويقول له هامساً إنه سيفشي إليه بسر لم يقله لأحد من قبله ، ويدس في جيب الشواف "مدالية" كتب عليها "عائدون"، إلى أين؟ إلى فلسطين بالطبع ، ولكن متى يا سيادة الزعيم، متى ستكون العودة إلى فلسطين؟، قال قاسم : سأعلن ذلك في الوقت المناسب".

كان هذا المشهد العبثي دليلاً في حد ذاته على أن سفينة البلاد صارت هي نفسها بدون ربان، و أن العراق يندفع– أو تدفعه قوى خفية– نحو المجهول، وفي شوارع الموصل وطرقاتها، كانت قوى الوطن مقسومة على نفسها، وقسم منها تزين له قرباه من قلب الزعيم– أو من خبث الزعيم– إنه قادر على أن يسحق الآخرين، وأن "يسحل" بالحبال التي تتلوى في الهواء كل من يقف في طريقه.

ما جرى بعد ذلك هو النتائج الطبيعية لمقدمات المأساة.. عقد المهرجان الكبير، في هذا المناخ العصيب المتوتر، بعد أن أرسل مكتب الزعيم الأوحد برقية إلى الشواف تطلب منه بقاء القطعات العسكرية في ثكناتها يومي 5 و6 بمناسبة انعقاد المهرجان، وفي يوم 7 أيضاً أرسلت برقية أخرى تطلب من آمر المنطقة العسكرية استمرار بقاء القطعات العسكرية داخل ثكناتها.

وبعدما تم المهرجان وانفض، حاولت القوى القومية أن تقوم بالمقابل بالتعبير عن وجودها الحقيقي في المدينة، واعترض الشيوعيون وطالبوا بنزول القوات العسكرية– التي كانت لديها أوامر بالبقاء في ثكناتها حتى يعقدوا مهرجانهم– كي تفض التجمع القومي، ولكن التظاهرة القومية سارت في المدينة وازدادت اتساعاً، وإذا بطلقات الرصاص تنهمر عليها، ونيران الحرائق تتصاعد من المكتبات والمحلات والمقاهي المملوكة لعناصر تنتسب إلى الحركة القومية ، ومظاهرة مقابلة يقودها الشيوعيون تحاول أن تحاصر المظاهرة الأولى ، وعند منطقة في المدينة تسمى "باب البيض" وهي منطقة

يهيمن عليها القوميون بشكل كامل- بدأت المظاهرة الشيوعية تفقد أعصابها، فأخذ أفرادها يهاجمون البيوت، ويخرجون ساكنيها منها، ويلقون بهم إلى الطرقات المجنونة حيث العنف وحده هو السيد المطاع.

لم يكن ثمة مفر من أن تبدأ قوات الجيش القيام بواجبها ، نزلت إلى الشوارع، وأعلنت منع التجول في المدينة، بعد أن صارت نهباً لحرائق الدم والنار.

وفي بلاد بلا رأس يديرها، قرر الضباط الذين اجتمعوا بالشواف على أثر منع التجول أن يقوموا بانتفاضة مسلحة، وأن يكونوا الرأس الذي يستطيع أن يمسك بدفة البلاد ، وفي مارس- آذار، أعلن الشواف على رأس فرقته المسلحة، بيان انتفاضته الأول... والأخير.

لم يكن لهذه الحركة تخطيط دقيق، ولم يكن لها تنظيمها الذي يساندها في المواقع العسكرية الأخرى، وشاء حظها العاثر ألا يكون ظرفها مواتياً، فأرسل قاسم طائراته لقمع الحركة في مهدها، وجرح الشواف من جراء القصف الجوي، وحاول أن يذهب إلى المستشفى بنفسه ليداوي جراحه، وفي الطريق أطلقت عليه رصاصة، وعلقت جثته وسط العراء كشاهد حزين على قمة المأساة التي بلغها الصراع الدامي بين الشيوعيين والقوميين.

وبعد أن ضربت حركة الشواف في رأسها، كان ذلك إيذان اً بفتح أبواب السعير على مصراعيها، انطلق جنون العنف كعملاق أعمى يضرب في كل اتجاه، وصارت شوارع المدينة غابة من الحبال التي تسحل الأجساد البريئة حتى تفارقها الحياة، وتحطمت أبواب، وتهدمت بيوت، واختنق شيوخ ونساء وأطفال، وصلبت الأجساد على أعمدة الكهرباء ومن بينها أجساد العذارى عاريات، بينما شوارع بغداد تتدفق عليها مظاهرات غريبة لم يكفها ما جرى في الموصل فـإذا بها تهتف: إعدم! إعدم! وصحيفة "اتحاد الشعب" لسان حال الحزب الشيوعي العراقي تصدر في صفحتها الأولى تقول: "بعد أن شهدت الموصل أمس سحل جثة عبد الوهاب الشواف جاء يوم الثلاثاء ليلا دور الآخرين، فبدأت الجماهير الغاضبة منذ المساء بسحل جثثهم في الشوارع ليكونوا عبرة...".. وبعده بقليل نداء من المنظمات النقابية التابعة للحزب الشيوعي يقول: "سنقلب العراق جحيماً، إن كل مدينة وكل قرية وكل شبر من أرض العراق ستلقن كل من يقدم على التجاوز على جمهوريتنا، درساً أبلغ من درس الموصل ". (اتحاد الشعب) 1959/3/13، ثم بعد ذلك بيومين، وفي مجال تقويم التجربة "الثورية"، التي خاضها الشيوعيون في الموصل كتبت جريدة "اتحاد الشعب" تحيي "المناضل البرزاني" الزعيم الإقطاعي الكردي قائلة: "كان وجود المناضل البرزاني في كردستان أثناء حدوث تمرد العصاة الخونة زمرة الشواف ذا أثر كبير في زيادة اندفاع الأكراد للمساهمة في قمع العصيان وقتل مؤامرة الشواف في مهدها " (اتحاد الشعب) 1959/3/18.

وبعد مهرجان القتل والسحل في الشوارع والطرقات، بدأ مهرجان أخر في "محكمة المهداوي"، والمآسي من فرط مأساويتها تتحول أحياناً إلى مهازل مضحكة . فلم يحدث قط في أية محكمة في العالم، حتى في محاكم مجرمي الحرب العالمية الثانية في "نورمبرغ" أن وقفت الجماهير في قاعة المحكمة لتقول بصراخ عصبي مجنون، وهي تلوح في الهواء بحبال في أيديها : "إعدم! إعدم!"، بينما كان فريق من الضباط ال قوميين- الذين مهما كان خلافهم مع الحكم القائم فهم وطنيون من قمة رأسهم حتى أخمص أقدامهم- يقفون في قفص الاتهام، وينتظرون أن يفرغ رئيس المحكمة من سبابه للقومية والوحدة العربية والجمهورية المتحدة وجمال عبد الناصر، حتى يتلو عليهم وسط التكبير والتهليل، الحكم بالإعدام.

وفي ساحة "أم الطبول" بالعاصمة بغداد، انتصبت المشانق لتقطف رؤوس رجال من ألمع وأشرف من حملوا السلاح في الجيش العراقي دفاعاً عن شرف الوطن وكرامة المواطن.

ما حدث في البصرة بعد ذلك، حدث نظيره بصورة أعنف وأكثر شراسة في كركوك، وكلاهما مأساة أخرى تنسج على منوال مأساة الموصل ، حتى أن عبد الكريم قاسم نفسه في لقائه مع وفد المنظمات المهنية والنقابية التابعة للحزب الشيوعي قال لأعضائه مستفزا "سأوزع عليكم الآن بعض الصور لتروا الفوضى التي وقعت تجاه إخواننا المواطنين

التركمان، انظروا هل يبيح أحد منكم لنفسه أن يقوم م قام السلطة ويعتدي على أبناء الشعب، ويجرهم من بيوتهم، وينكل فيهم هذا التنكيل الوحشي الفظيع؟ إن الذين يدعون بالحرية، والذين يدعون بالديموقراطية، لا يعتدون اعتداء وحشياً ، إن حوادث كركوك لطخة سوداء في تاريخنا، هل فعل مثل ذلك هولاكو؟ أهذه مدنية القرن العشرين؟ " (اتحاد الشعب) 1959/8/5.

ومع ذلك كانت جريدة (اتحاد الشعب) –1959/7/20– تكتب قائلة: "جاء الحزم في كركوك مثالا آخر رائعاً على الأسلوب الوحيد المجدي في سحق أعداء الجمهورية ". وفي مكان أو تقول: "إن قوى الجمهورية اليقظة أظهرت قدرتها الجبارة، فأنزلت ضربتها القوية الحازمة في كركوك، بنفس الطريقة المحنكة عند سحقها مؤامرة الشواف ". (اتحاد الشعب) 1959/7/22..

ولا بد أن كارل ماركس الذي كان يقول "إن الإنسان هو أثمن رأسمال " (هذا القول لم يتردد على لسان كارل ماركس وحده، ولكن ولكن على ألسنة معظم الماركسيين في العالم، ومع ذلك كثيراً ما نقضه بعض الماركسيين أنفسهم)..

قد تململ في قبره في تلك الساعات الحزينة التي ارتكبت فيها كل هذه الخطايا باسمه، ولا شك أنه أعاد ترديد قوله الشهير الذي كان يتبرأ به من الذين يعلقون على مشجبه جرائمهم : "لو كانت هذه هي الماركسية، فكل ما أعرفه أنني لست ماركسياً". (ماركس – انجلز، الأعمال المختارة، موسكو –بالفرنسية– دار التقدم، المجلد الثالث، ص 506)..

5 - شرخ في جدار الإرهاب

من هو الرابح، من الذي كسب في سباق الدم؟

لقد أريد للقوميين أن يكونوا الذبيحة التي تقدم لعبد الكريم قاسم على مذبح دكتاتوريته الفردية، حتى يصبح الشيوعيون وحدهم سدنة المعبد وكهانه. ولكن "الزعيم الأوحد" الذي كان يجيد في تلك المرحلة لعبة "فرق تسد" لم يفته أن الشيوعيين يتصورون أن بوسعهم أن يجعلوا منه لعبتهم، مثلما يتصور هو أن بوسعه أن يجعل منهم لعبته. وإذ ا كان قد ساندهم في ضرب البعثيين وا لاجتهاد في تصفيتهم فـإنه سيسارع لإ يقافهم عند حد لا يتخطونه، حتى يظل محتفظ اً بميزان القوى المتوازنة بين يديه. ولم يستطع الشيوعيون، رغم كل ما بذلوه، أن يصلوا إلى المشاركة الرسمية في السلطة ، بل إن الساحة السياسية بدت خالية تمام اً إلا منهم، بعد أن أعلن الحزب ال وطني الديموقراطي تجميد نشاطه احتجاج اً على ممارساتهم الخاطئة، ورغم ذلك كان هذا الفراغ في غير صالحهم، لأنه يضع على عاتقهم وحدهم كل انهيارات الوضع السياسي والاقتصادي في البلاد.

تلك كانت لحظة من لحظات الجزر السياسي بالنسبة للقوى القومية، ولم تعد لحظة مد بالمعنى الإيجابي بالنسبة لهم. كان الطاووس المختال يمشي وحيداً مترنحاً من فرط خيلائه على قمة السلطة، بينما جماهير الشعب ما تزال تعاني، على كل المستويات، آلامها الدائمة، التي تزيدها الفوضى الضاربة أطنابها في آفاق البلاد، حدة وتفاقماً.

في تلك المرحلة، قتل شخص يدعى "سعدون الناصري" في مدينة تكريت، وكان من رجال السلطة وأنصار عبد الكريم قاسم المتحمسين، فلم تجد أجهزة الأمن من تعلق عليه مسؤولية قتله سوى أكتاف ذلك الشاب الهادىء الرصين الذي كان يعود إلى قريته كلما انتهت أيام الدراسة ليمارس حياة الفلاحين مع أقاربه : صدام حسين، لا بسبب مفهوم سوى إنه مناضل بعثي تعرفه أرض منطقته.

إنه يدخل السجن الآن لأول مرة في حياته ، سجن السراي، حيث يلتقي، وهو العضو الحديث في حزب البعث العربي الاشتراكي، بموجات متلاحقة من رفاقه، كانت اللحظة شديدة السواد، حتى إن السجن قد أصبح هو المكان الوحيد الآمن بالنسبة للمناضلين من مغبة القتل العشوائي أو السحل المجاني في الشوارع والطرقات ، من يتصور؟ من يتصور أن السجناء يتوسطون لدى شرطة السجن حتى تدخل معهم وراء القضبان مناضلين من رفاقهم، يقضون سحابة يومهم آمنين، ثم ينسحبون عائدين تحت جنح الظلام إلى بيوتهم حتى تطلع الشمس فيفزعون إلى ما وراء القضبان من جديد؟

وذات صباح جاء من يخبره بأن قضيته قد سحبت من محكمة العرف العسكري الأول إلى محكمة الشعب أي محكمة المهداوي، فأيقن أنهم يريدون إعدامه مع المتهمين معه من أقاربه ورفاقه.
وكان رد الفعل الأول في نفس صدام هو أن يحاول ال خلاص بالقوة من هذا الكمين الذي يدبر له ، واتفق مع شخص يدعى "عوني رفاعي" أن يجلب له- أثناء ذهابهم إلى التحقيق- مسدسات يستعينون بها على محاولة تخليص أنفسهم قبل أن تبدأ المحاكمة، ويجد نفسه مع رفاقه طعاماً سائغاً لمقصلة المهداوي، وشرح لرفيقيه في القضية الخطة التي يدبرها، كان أحدهما ابن عم أمه، والثاني ابن عمه ، شابان مثله، أما خاله وعمه اللذان كانا متهمين معهم فلم يفاتحهما ، غير أنه عاد فتريث في تنفيذ الخطة، إذ خشي أن تنفرد السلطة بخاله وعمه، وهما لا يستطيعان الهرب ، وبعد فترة قصيرة، وكان المد القومي قد بدأ يشتد مر ة أخرى، أعيدت أوراق القضية إلى العرف العسكري الأول، فألغى قراره باستخدام القوة للخلاص من المحاكمة، وبقي في السجن ستة أشهر، ثم أفرجت عنه المحكمة وبرأته من التهمة التي ألصقت به.
عاد إلى القرية، وكل مساء كان يخرج ليكتب على جدران البيوت، ومباني المؤسسات شعارات البعث، من "العوجة" إلى "تكريت " كان المارة يقرأون كل صباح كلمات جديدة لا يعرفون من كتبها ، وبعض هذه الكلمات ما تزال تحتفظ به جدران تكريت حتى الآن.
وأقبل عليه ذات يوم رفيق حزبي اسمه (عطا حسين السامرائي)، وهو في قريته "العوجة" حيث كان ما زال يعيش مع عمه ووالدته، وقال له: إن الحزب يريدك في بغداد.
في الصباح التالي سلك طريقه على الفور نحو العاصمة، واتجه إلى بيت مسؤوله الحزبي، وكان يومها عبد الخالق السامرائي، ولكن مسؤوله لم تكن لديه صورة واضحة عما يريده الحزب منه، ولا المهمة التي يريد إلقاءها على عاتقه، قال له السامرائي: سيمر عليك أحمد طه العزوز، وكل ما أعرفه أنه سيأخذك إلى الجهة الحزبية التي طلبتك، وهناك سيقولون لك ما هو الواجب الذي يترتب عليك أن تؤديه.
بعد ساعات طرق بابه "أحمد طه العزوز" وصحبه الى شخص أخر اسمه "أياد سعيد ثابت". نظر إليه أياد بعمق وقال له بصوت هادىء رزين واضح النبرات: "الواجب" هو ضرب عبد الكريم قاسم، فهل أنت مستعد؟
على الفور أجاب صدام حسين بصوت فيه رنين فرح: بالطبع أنا مستعد.
لقد اعتبر تكليفه بهذا "الواجب" تكريماً له. فمثل هذه المهمة الكبيرة عندما توكل إليه هو الحزبي الحديث العهد بنضالات الحزب، لا بد وأن تنطوي على تقدير خاص له.
لم يكن استخدام السلاح غريباً عليه، فلقد امتلك أول مسدس وهو في العاشرة من عمره حين كان هارباً من بيت أسرته في طريقه إلى تكريت كي يدخل المدرسة رغماً عنهم، ولكن استخدام المدفع الرشاش كان يحتاج إلى بعض التدريب، فأداه بسرعة، في منطقة تعرف باسم "الحصوة".
كان عبد الكريم قاسم قد اعتاد أن يسلك شارع الرشيد في ذهابه من بيته إلى مكتبه بوزارة الدفاع أو أثناء عودته من مكتبه إلى بيته في "العلوية". ولذلك كان لا بد أن يكون شارع الرشيد مسرحاً للعملية. استأجر الحزب شقة في شارع الرشيد، أقام فيها صدام حسين ورفاقه الذين يشاركونه تنفيذ الخطة، وفي الخارج، كان هناك من يراقب الطريق ليعرف الاتجاه الذي سوف يسلكه قاسم، فإذا كأن قادماً من ناحية الباب الشرقي ستكون كلمة السر "شكري"، وإذا كان قادماً من ناحية وزارة الدفاع ستكون كلمة السر "محمود"، والفرق بين الاثنين هو رصيف الشارع الذي سوف تمر بجانبه سيارة "الزعيم الأوحد" حتى تكون تحت مرمى البنادق الرشاشة.
في السابع من شهر أكتوبر/ تشرين أول عام 1959، كانت مجموعة من الشباب واقفة على رصيف شارع الرشيد الموازي لاتجاه السيارات الذاهبة ناحية الباب الشرقي ، كانت عيونهم كلها مركزة على السيارات التي تعبر الطريق، وأيديهم فوق الزناد، وكان المرء يستطيع أن يميز بينهم ذلك الشاب النحيل الذي يضع على أكتافه "جاكتة" طويلة تبدو وكأنها ليست له، وهي بالفعل لم تكن له ، كانت "جاكتة" خاله استعارها من دولاب ملابسه دون أن يدري حتى يسمح

طولها الظاهر بتغطية الغدارة التي يحملها إلى جانبه. وكانت مهمة هذا الشاب في تنفيذ الخطة، أن يحمي رفاقه الذين سوف يطلقون النار على سيارة "الزعيم"، وأن يغطي انسحابهم بعد تأدية واجبهم، ويكون هو آخر من ينسحب، غير أنه عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام الدكتاتور، لم يت مالك نفسه، نسي التعليمات كلها ، رأساً أطلق عليه الرصاص ، وانهمرت النار على السيارة من الغدارات والرشاشات الأخرى . كانوا خمسة، ولكن اثنين منهما تعطلت غدارتيهما، فبقيت الأخريات يلقين على سيارة "الزعيم الأوحد" كل عنف الجماهير المكبوت في صدرها، هذه باسم شهداء الموصل، وهذه باسم شهداء البصرة، وهذه باسم شهداء كركوك، وهذه باسم شهداء بغداد، وهذه باسم كل الشيوخ والنساء والأطفال الذين ماتوا موتا مجانياً فداء لجنون السلطة، وهذه حتى تختفي أفاعي الحبال المسعورة التي تزحف في غابة لا يمكن أن يعيش فيها الإنسان، أما هذه فمن أجل بعث هذه الأمة، من أجل حريتها ووحدتها وغدها الأفضل، من أجل الدفاع عن أحلام البسطاء بحياة ليس فيها فقر ولا خوف ولا مذلة.

هل مات؟ لقد نفد الرصاص من غدارات الشباب، ولا بد أن يكون قد لقي حتفه ، انسحبت المجموعة، وانسحب من ورائها صدام، وإذا به يسمع طلقات رصاص تطاردهم، كان واحداً من شرطة المرور يحتمي بسيارة ويرمي برصاصه عليهم، التفت إليه وقبل أن يحاول إطلاق الرصاص عليه، رماه الشرطي واختفى سريع اً خلف السيارة، أصابته الطلقة في رجله، ولكنه لم يشعر بها لحظتها، كان يريد فقط آنذاك أن يؤمن انسحاب المجموعة إلى سيارة تنتظرهم بالشارع الفرعي الذي يقطع عرضياً شارعي الرشيد والكفاح، وكان واحد من أفراد المجموعة قد أصيب، وصدره ينزف، ولا يكاد يقوى على السير.

عندما وصلوا إلى المكان الذي توجد به السيارة التي يفترض أن تنتظرهم، وجدوا السيارة ولم يجدوا السائق، ووقفوا ينتظرون لحظات أطول من الدهر، وبينهم سمير النجم صدره ينزف، نظر صدام حسين إلى كريم الشيخلي وقال له: لن ننتظر هنا أكثر من هذا الوقت ، لا بد أن نأخذ سيارة بالقوة من هذه السيارات الموجودة في الطريق ، وبالفعل سحب غدارته على أحد السائقين وتوقف الرجل مذعور اً، وقبل أن يصعدوا إلى سيارته، وصل علي حسون قائد سيارتهم ، وضعوا سمير النجم داخل السيارة بسرعة. وصعد كريم الشيخلي إلى المقعد الأمامي، واتخذ صدام مكانه خلف السائق.

لم يكن يعرف إلى أين سوف يذهبون ، كان علي حسون يعرف مكان "الوكر" الذي سوف يختبئون فيه حسب تعليمات القيادة، غير أن سمير قال وهو في قمة الألم: إنني أموت، يجب أن تحملوني إلى المستشفى، بدا أن رفاقه يميلون إلى الخضوع لرأيه، والسائق نفسه أخذ ينحرف بسيارته عن الطريق الذي كان يسير فيه، وكأنه وافق هو أيضا على الاتجاه إلى المستشفى، فجأة تنبه صدام إلى وجهتهم: قال: إلى أين؟، قال علي حسون: إلى المستشفى، لكزه صدام بيده من خلف مقعده وقال له: سر في طريقك إلى الوكر وإلا فإنني سوف أطلق عليك النار من الخلف.

كان الذهاب إلى المستشفى هو الجنون بعينه ، إذ سرعان ما سوف ينكشف أمرهم، وتكون الكارثة ليس بالنسبة لهم كأفراد فحسب، وإنما بالنسبة للتنظيم الحزبي كله، وإذا كان الموت ينتظرهم أو ينتظر بعضهم في الوكر، فإن الموت سوف يطبق عليهم بالقطع إذا حاولوا الذهاب إلى المستشفى، ولذلك قرر صدام أن يتجهوا إلى الوكر مباشرة، وأن يتجاوز آلام رفيقه النازف، حتى لا ينزف الحزب كله.

أمام بيت مسور يحمل على بابه رقم 721، في منطقة الكرادة الشرقية (حي من أحياء بغداد) وقفت السيارة وهبط منها ركابها ، دخلوا إلى البيت الذي كان يحتوي على طابقين : أربع غرف في طابقه الأرضي، وغرفة واحدة في الطابق العلوي ، وإلى يسار البيت، حيث مدخل الحديقة، كان ثمة مستودع أرضي، يختبئ فيه السلاح: مجموعة من الرشاشات طراز تومسون، وستن وسترلنغ. عندما دخلوا الردهة، وجدوا، "خالد علي صالح" وكان عضو قيادة أيامها في حزب البعث العربي الاشتراكي ، وبعد برهة قصيرة لحق بهم اثنان من الذين اشتركوا معهم في العملية ولم يركبا معهم في السيارة التي أقلتهم إلى هذا المكان : حاتم حمدان العزاوي، وأحمد طه العزوز.

كانت حالة سمير النجم تتدهور ، الدم ينزف من صدره، والطبيب الذي كان من المفترض أن يلحق بهم، لم يأت بعد ، وهو لن يأتي أبداً ، وكان لا بد من مواجهة الوضع كما هو بشجاعة، بل بقسوة، تتطلب في بعض اللحظات، مثلما هي هذه اللحظة، قوة تفوق صخر الجرانيت في صلابته.

هذا البيت المعزول في شارع جانبي من جوانب هذا الحي الهادىء، يضم الآن بداخله خمسة شبان حاولوا مواجهة الموت عينه على قارعة الطريق، ولكنه أفلت منهم، وها هو الآن يطاردهم، في كل شبر من المدينة المذهولة، ويسن كل مخالبه الحادة لينشبها في أجساده م، ما عساهم يفعلون الآن؟ إن عمليتهم لم تنجح ، لم تصب رصاصة واحدة من كل رصاصاتهم إصابة قاتلة جسد الدكتاتور الأوحد، لم تتمزق ظلمات الليل، ولم تبد بعد تباشير الصباح، بل والفجر ما زال بعيداً خلف الأفق، ومحطات الإذاعة تعلن نجاة الزعيم من محاولة اغتياله، وسط جو ه ستيري مشحون بالقلق. الحاكم العسكري العام يقرر منع التجول في المدينة بشكل مطلق حتى إشعار آخر. عيون الشرطة العلنية والسرية تثقب كل جدار في الطرقات والشوارع والأزقة، بحثاً عمن قاموا "بالمؤامرة الكبرى" لاغتيال (الزعيم المفدى)، وغداً سوف تصدر كل صحف السلطة قائلة "إن الرصاصات الآثمة التي أطلقها أمس الخونة المتآمرون من عملاء الاستعمار، والطامعون على ابن الشعب البار الزعيم عبد الكريم قاسم لم تكن إلا نذيراً بالمؤامرة المبيتة ضد جمهوريتنا "(اتحاد الشعب 1959/10/8). وستضيف إلى ذلك توصياتها : يجب غلق الحدود بوجه المتآمرين الهاربين. الجبهة القومية زمرة من الخونة تعمل في خدمة الاستعمار والطامعين . قوميون وأعداء. جريمة حزب البعث ومخططه التآمري . البعث وحكام القاهرة أدوات تنفيذ المؤامرة. الخ... الخ...

وهي بالطبع سوف تتجاهل آلاف الجرائم التي ارتكبت بحق جماهير هذا الشعب من "ابنه البار" والملتفين حوله يزكون فيه جنون السلطة الفردية المطلقة . مشانق الموصل ، ضحايا البصرة ، شهداء كركوك، وبغداد ، آلاف المعذبين في السجون والمعتقلات ، بشاعات القتل المجاني بالشبهات في الشوارع والطرقات ، من يذكر الآن نيران الجحيم التي اصطلى بها شعب بأسره؟.

وهؤلاء الشبان الذين يناهزون الورد في عمره هل كانوا حقاً مغامرين، متآمرين، يسلكون طريق الإرهاب الفردي؟ إن أحد ا منهم لم يكن يفكر، وما كان بوسعه أن يتصور لحظتها، انه ينتزع من براثن الدكتاتور السلطة لنفسه ، كانوا يستشعرون فداحة الظلم الذي يلحق بهم، وكانوا يتصورون فحسب أنهم يصنعون فجراً آخر لوطنهم، وقبل ذلك، وبعده، كانوا رفاقاً منضبطين، ملتزمين، في حزب أصدرت لهم قيادته العليا أوامرها، وتصوروا الأمر أكبر من حقيقته، وعندما تنعقد محكمة المهداوي، ويرتفع الستار عن أزلام السلطة وهم يتبارون في تدبيج قصائد التدله بدكتاتورها الأوحد، ورجم معارضيه بقوارص السباب، لن يتوانى صوت البعث عن تحمل مسؤولية العملية بغض النظر عن وجهات النظر التي تدعو إلى ما هو أفضل منها. "إن النضال الشعبي هو أسلوب العمل الحزبي، وقد يصل النضال الشعبي إلى أعمال عنف ثورية، قد ترافقها حوادث قتل، وهذا أمر طبيعي ، ولكن القتل المجرد كعملية اغتيال مثل الاغتيال السياسي أسلوب يتنافى مع عقيدة الحزب ويهدده بالانحراف...

"إن الحزب حينما يخطىء محاولة الاغتيال، فإنه يعلن في نفس الوقت تقديره لبطولة الرفاق الذين ساهموا في تنفيذها بجرأة، لاسيما وإن جرأتهم خلال المحاكمة، لم تمنع ظهور موقفهم المتمسك بعقيدة الحزب والإخلاص لأهدافه". (نضال البعث الجزء السابع صفحة 135).

ومع ذلك، وبصرف النظر عن تقويم تلك العملية من الناحية السياسية العامة، أو من الزاوية الأيديولوجية الخاصة لحزب البعث، فإن الأمر الذي لا يمكن إنكاره أن المحاولة التي جرت ببسالة على أيدي هؤلاء الشبان الصغار: قد هزت بعمق أركان النظام الدكتاتوري الذي كان متسلطا على رقاب الشعب ، وكانت بمثابة المسمار الأول في نعشه ، لقد أذكت من جديد الآمال المحبطة في إمكانية الخلاص منه ، ورفعت الغطاء من فوق القمقم الذي احتبس بداخله المارد

الجماهيري المغلل، إنها كانت في أضعف الإيمان شرخاً هائلاً في جدار الخوف، كان جديراً بأن يسمح لإ شراقات النور الآتي بأن تتسرب من خلاله.

6- رحلة الفلوس الجريح

لم يستطع أن ينام حتى الصباح، قبل ساعة من طلوع الفجر نهض صدام حسين من فراشه فجأة وهو يحس بجمرة موقدة تتلظى في ساقه، ألم حاد مرعب، لم يستشعر مثله قط من قبل، أدرك أن الرصاصة داخل ساقه هي التي تتسبب في كل ما يعانيه الآن، أين الطبيب؟ ما من طبيب يمكن أن يأتي إلى هنا، أو أن تذهب إليه، ليس هناك معنى للانتظار، يجب أن تكون طبيب نفسك، قرر على الفور بإرادته الفولاذية أن يجري العملية لنفسه.

بهت الرفاق الذين تحلقوا حوله بعد أن تحسسوا أنينه المكتوم. كيف يمكن له

أن يستخرج الرصاصة من جسده بنفسه؟ قال لهم بصوت خفيض حبسه الألم : أنا لا أنتظر الطبيب الذي يأتي ولا يأتي.

ونظر لأحمد طه العزوز وقال له: هل لديك الشجاعة لتقوم بالعملية أم أقوم بها أنا؟ من الأفضل أن أمد ساقي هكذا وتجريها أنت، أما إن لم تستطع فسأفعلها أنا، قال أحمد: وكيف يمكنني أن أجريها؟ بأي أداة؟ نظر إليه صدام بثبات وقال كأنه يتحدث عن شخص آخر: أحضر شفرة حلاقة جديدة، ومقص، ابدأ بقص اللحم الذي يغطي الطلقة على شكل صليب + وبعد القص عقم المقص وأدخله داخل الجرح وأخرج الطلقة، هذا كل شيء.

عندما انتهى أحمد طه العزوز من إجراء العملية، كانت يداه ترتجفان، وعيناه لا تقويان على النظر إلى وجه صدام، صب كمية من اليود فوق الجرح، ووضع بداخله كمية من القطن، ولفه بأطباق كثيفة من الشاش، ثم تنفس الصعداء، وتوقف. وكان صدام حسين قد غلبه الإغماء من شدة الألم. ومرت لحظات قصيرة، ولكنها ثقيلة، وبطيئة، مثل دهر، وقد تركزت على وجهه عيون الرفاق، ولكنه ما لبث أن فتح عينيه ونظر إليهم وقال: صار كل شيء طبيعياً الآن.

بعد برهة تحامل على نفسه ونهض من مقعده وقال لهم: يا رفاق أنا لن أبقى

في الوكر بعد الآن، واقترح عليهم أن يتركوا الوكر جميعاً ما عدا سمير النجم الذي لا يستطيع بصدره النازف أن يغادره، على أن يبقى شخص واحد يقوم بدور "الدورية" معه، وليس بالضرورة يظل معه داخل الوكر، وإنما من الممكن أن يتابعه بشكل غير مباشر، كأن يجلس أمام الدار ويتخفى في شخصية بائع متجول، وبين الحين والآخر، يمر عليه في الداخل ليلبي طلباته واحتياجاته. وفي كل الأحوال لا يمكن الاستمرار في هذا الوكر، فأغلب الظن أنه سيكون عرضة لهجمات الشرطة، ومن الخير بل من الواجب ألا يقعوا فريسة سهلة في أيدي السلطة، حيث ينتظرهم واجب إعادة الكرة كما كانوا يفكرون.

لم ينتظر حتى يحسموا ترددهم. قال كلمته ومشى، خرج إلى الطريق وسار باتزان محاولا أن يمتص الألم الحاد الذي يمزق ساقه، بين أسنانه، متجهاً نحو بيت خاله الحاج خير الله طلفاح. كانت هذه هي المرة الأولى التي ينام فيها خارج دارهم،. وكان من الطبيعي أن تستقبله العيون بالأسئلة المحرجة : أين كنت؟ لماذا تأخرت؟ أين نمت البارحة؟ قال في هدوء: صار منع التجول ولم أتمكن من الوصول إلى البيت، فنمت في أحد الفنادق، ولكنهم لاحظوا أنه يعرج على ساقه قليلا، فقال على الفور: لما صار الركض في الشوارع سقطت على الأرض وأنا أركض حتى أصل إلى البيت في الوقت المناسب ومع ذلك لم أتمكن، وهي الآن تؤلمني قليلا... وتركهم متجنباً المزيد من الأسئلة وصعد إلى غرفته في الطابق الثاني حتى ينام.

فجأة دخل خاله عبد اللطيف غرفته وهو يحاول الاستلقاء على الفراش وقال له:

- هه - ألم يمت؟
- من هو؟
- عبد الكريم قاسم.

عقدت الدهشة لسانه، ولكنه تمالك نفسه، وقال في لا مبالاة مصطنعة وكأن الأمر لا يعنيه:

– وما أدراني أنا به؟

– صدام، أتتكر علي أنا؟ لقد رأيتك بعيني من شرفة حازم البكري بشارع الرشيد وأنت ترتدي جاكتتي وتطلق النار على عبد الكريم قاسم، رئيس الوزراء وهو يعبر الطريق، كل هذا وتتكر؟.

قال له صدام: ما دمت قد رأيتني فأرجو أن تعاونني. أنا أريد بعض حقن

– الأنتي بيوتيك– حتى يشفى جرحي، سأقول للمضمد أن لدي التهاباًفي اللوزتين، وبالفعل بدأ يتعاطى الحقن حتى يكف الجرح عن إيلامه.

وكان عليه أن يعود إلى مدرسته، حتى لا يلفت الانتباه إليه بتغيبه ، على الأقل يذهب في البداية ثم يطلب إجازة من الدراسة بحجة المرض ، كان حينذاك في الصف النهائي بالمدرسة الثانوية ، ولم يكن بوسعه الاستمرار العادي في الدراسة حتى لا يتعرض لأسئلة الطلاب الأشد إحراجا حول الجرح الذي يتلظى دق ساقه.

عندما كان خارجاً من باب المدرسة، حاملا كتبه، وجد أمامه فجأة عبد الخالق.

قال له على الفور:

– قل لي هل تعرف أياد سعيد ثابت؟

– لا. لا أعرفه.

– هل تعرف خالد علي صالح؟

– لا. لا أعرفه.

– هل تعرف سمير النجم؟

– لا. لا أعرفه.

– طيب، أنا لا أريد أن أسألك الآن عمن تعرف أو لا تعرف، المهم إنني أريد أن أقول لك إن هؤلاء جميعاً كانوا في أحد الأوكار بالكرادة الشرقية، وقد هاجم البوليس الوكر، وقبض عليهم كلهم ... فإذا كانت لديك علاقة بأي منهم انتبه لنفسك.

هكذا إذن. بعد خروجه من الوكر بساعات وقع الرفاق كما توقع لهم في أيدي السلطة . ماذا عليه أن يفعل الآن؟ حث خطاه مسرعا نحو البيت، دخل إلى غرفته مباشرة، وسحب "ألبوم" صور كان يضم صوراً عديدة له مع بعض رفاقه، ثم دخل إلى غرفة عدنان خير الله ابن خاله وسحب البوم صوره أيضا وكان يضم كذلك مجموعة من الصور المشتركة، وأحرق الصور جميعاً، ثم قرر أن يغادر البيت في نفس اللحظة، وبعد أن غادر البيت بربع ساعة، هاجمت البيت مفرزة الشرطة.

مضى صوب جسر الشهداء ليحوم حول الفندق الصغير الذي كان يقيم به عبد الخالق السامرائي، صلته بالحزب، حتى يستفسر منه عن إمكانيته في معاونته على الهروب. في الطريق صادفه زميل كان متعلقاً بسلم حافلة نقل الركاب، فقفز منه وجاء إليه يحييه بصوت عال حيث يتطلب الأمر إخفاض الصوت حتى يكاد أن لا يسمع، وهو لا يعرف شيئا عما يجري في هذه اللحظة، وفي تلك اللحظة وإذا بشابان قد جفت شفاهما من اللهاث وهما يتمتمان بكلمات استطاع أن يفهم منها أن الشرطة قد داهمت بيت خاله، لم يعد هناك ما يمكن إخفاؤه بعد أن اقتحمت الشرطة بيته ، قال لعبد الخالق الذي التقاه في الفندق فكوة عامة عن الأحداث وطلب إليه أن يتوجه إلى بيت قريب من بيت خاله، ومن هناك يرسل سيدة إلى البيت تجلب له بطاقة هويته، لأن منع التجول المؤقت الذي كان ما زال سارياً، ونقاط التفتيش المنتشرة في الطرقات يمكن أن تقوده إلى مخافر الشرطة بالصدفة المطلقة، وقال له بحزم بعد أن حسب مسافة الطريق والوقت الذي يمكن أن تستغرقه:

– سأنتظرك في هذا المقهى أربعين دقيقة فقط، إذا لم تحضر قبل أن تنتهي لن تجدني.
كانت أطول الدقائق في عمره ، فالوقت نهار، والعيون مفتوحة، وكل الاحتمالات قائمة . ومضت الدقائق الأربعون ولم يأت، فخرج من المقهى على الفور، ومضى في طريقه.
لم يكن يعرف إلى أين يتوجه ، فجأة تذكر أن لديه قريباً في أحد أطراف بغداد، كان يذهب إليه مع خاله كي يصطادا الطيور في الحقول المجاورة . حث خطاه في اتجاهه دون أن يتردد ، طرق الباب ففتحت له زوجته ، ولم يكن قريبه بالمنزل، فطلب إليها أن ينتظره، وعندما جاء الرجل دهش للحظة لمجيئه، ولكنه رحب به ، فبادره صدام قائلا: والله يا عمي أنت تعرف أن الظروف معقدة الآن وقد يختلط فيها الحابل بالنابل في كيل التهم وتوجيه الضربات، مما يتطلب أن أبتعد عن وجه مركز السلطة في بغداد . وأود أن أصل إلى تكريت دون أن يعرف أحد ، فهل يمكنني أن أنام الليلة عندك؟.
في الصباح طلب إلى الرجل أن يقدم له أعتق ما لديه من ملابس، نزع سترته وتركها، وارتدى دشداشة بالية، ووضع على رأسه عقالا وشماغا لا يقلان عنها بلى، وعلى أكتافه وضع عباءة سوداء مليئة بالثقوب، ولطخ حذاءه بالطين حتى يبدو عتيقاً، وودع الرجل... ومضى، بعد أن استعار منه سكيناً صغيرة قال له إنها يمكن أن تفيده في الطريق.
استوقف سيارة أجرة، وطلب إلى السائق أن يقوده إلى منطقة الصليخ (إحدى المناطق القائمة في أطراف بغداد) حيث يمكن أن يسلك طريقه، بعد الوصول إليها، نحو تكريت ، نظر السائق إلى صورته المنعكسة في المرآة أمامه، واستلفت منظره انتباهه. قال له: ماذا تفعل في بغداد؟ أجابه صدام بـلهجة الأعراب الريفيين: عمي أنا أشتغل عامل هنا . تعجب الرجل أكثر وقال له: أنت تشتغل عاملا وتركب تاكسياً؟ قال له صدام: عندك حق، ولكني أقول لك أن لدي أقرباء في منطقة الصليخ، وأنا لا أعرف مكانها جيدا، ولذلك قررت أن أركب سيارة أجرة، لم يكن أمامي سوى هذه الطريقة . قال السائق: يا بني سأوصلك إلى محطة الأوتوبيس الذي يمكن أن تركبه حتى الصليخ، هذا أوفر لك، أعطاه أجره، وصعد، إلى الأوتوبيس الذي قاده إلى منطقة الصليخ، وهناك هبط عند أطراف المدينة، وبدأ يتطلع بعينيه من حواليه حتى يعرف بداية الطريق الذي سوف يسلكه ماشياً على قدميه نحو قريته في تكريت.
كان الوقت شتاء، والحقول الواسعة على جانب الطريق تلوح له خضراء داكنة في ساعة الغروب ، والليل البارد يوشك أن يهبط عند الأفق ، وساقه المجروحة تنضح بالألم العنيف الذي يحول بينه وبين متابعة السير في تلك الساعة القلقة . وفجأة سمع صهيل فرس على مسافة قريبة منه في الحقل المجاور ، مضى نحوها ولم يكن بجانبها أحد ، ظل واقفاً حتى يأتي صاحبها، بعد برهة جاء الفلاح صاحب الفرس فبادره صدام قائلا : عمي أريد أن أشتري هذا الفرس ، هل تبيعها؟ قال الرجل بعد لحظة : نعم أبيعها، طلب سبعة عشر ديناراً، أعطاها له. وامتطى الفرس، وسلك طريقه بمحاذاة النهر، بعد أن تأكد أن هذا الطريق سوف يقوده مباشرة إلى تكريت.
اشترى لنفسه خبزاً وتمراً، واشترى لفرسه شعيراً، متاع الطريق.
كان يسير بفرسه من مطلع الشمس حتى الغروب، فإذا ما هبط الليل كان يتوقف، فالسير في الليل كان يمكن أن يعرضه لنقاط التفتيش على طول الطريق، وهو لا يحمل معه هوية ، في الليلة الأولى طرق باب واحد من العربان وقال له : يا أخي أنا ضيفك هذه الليلة، ونام نوماً عميقاً، لم ينمه منذ أيام، وفي الصباح الباكر سحب فرسه وواصل السير. وفي الليلة الثانية لم يصادف بيوت الأعراب في طريقه، فـقرر أن ينام على جانب الطريق . وضع رسن الفرس بيده واستلقى على الأرض منهكاً حتى أشرقت الشمس، فنهض من مرقده وتابع مسيرته . وفي الليلة الثالثة كان حظه أسعد، فلقد كان ضيفاً عند إعرابي يسكن بيتاً من بيوت الشعر على مشارف "سامراء". وكان لدى الإعرابي عرس في تلك الليلة، وذبيحة، فتعشى عشاء جيداً من لحم الأغنام بعد أن ع صرو معدته أكل الخبز الجاف والتمر، وعند طلوع الفجر ضم عباءته المثقوبة حول جسده، وأرخى الزمام لفرسه، واخترق أطراف سامراء، وتركها قبل أن ترتفع الشمس في كبد السماء ، وفي الطريق، وجد فلاحين يبيعون "بطيخاً" فاشترى عدداً منها تعاونه، وتعاون فرسه على العطش بالطريق.

عندما أوشكت الشمس على المغيب كان قد وصل إلى وادي جنوب "الدور" في منطقة تتوسط ما بين سامراء والدور ، وكان التعب قد أخذ منه كل مأخذ ، والبرد يتسلل إلى عظامه ويلسع بأسواطه جسده ، وفجأة وجد سيارتين توجهان مصابيحهما الكشافة إلى عينيه ، ولم يكن بوسعه أن يتوقف، فظل يغذ السير في طريقه وكأنه لم يلتفت إليهما ، وإذا به يسمع من يصيح به : قف وإلا رميتك، حينذاك أدرك أنها سيارات حكومية ولا بد له من التوقف ، ومع ذلك حاول أن يوجه فرسه نحو المناطق الوعرة المجاورة في التلال المحيطة بالمكان، ولكن فرسه المتعبة لم تستجب له، وما هي إلا لحظات حتى كانت السيارتان تحيطان به من كلا الاتجاهين، والرشاشات مصوبة إلى وجهه.

رغم كل شيء قال في نفسه، ربما لا يقصدونني، وعلي أن أتماسك حتى النهاية، سحب عباءته على ساقه حتى تخفي الشاش الذي يربط جرحه، ونظر إليهم في هدوء أعصاب واتزان كامل دون أن يتكلم، صرخ به الضابط من السيارة: يا ولد لماذا هربت؟

بذكائه الحاد أدرك على الفور أنه ليس مقصوداً. وأجابه بسرعة: أنتم لماذا ترمونني؟ قال الضابط : نحن هنا كمين للمهربين، وأنت أرسلوك حتى تراقب لهم الطريق ... هكذا إذن، ما أعجب المفارقة، قال له بثبات أكثر : أنت ليس لك الحق في أن ترميني . أنا لست مجرماً، وهذا الشك الذي انتابك لا محل له ، وأفضل طريقة بالنسبة لك حتى تتأكد من شخصيتي، خذني إلى مركز الشرطة حتى الصباح، وحينذاك سوف أدلك على أهلي أين يسكنون، وأنا ماذا أفعل، قال له الضابط: إذن اعطني هويتك. بنفس الهدوء والثبات قال له بلهجة مشوبة بالسخرية: يابا نحن هنا العربان لا نحمل هوية، أنا لست ذاهباً إلى المدينة حتى أحمل هوية، أنا في هذه المنطقة ماذا أفعل بالهوية؟ استراحت قسمات الضابط وقال له : أجل، واضح الأمر الآن، غير أنه واصل أداء الدور الذي يقوم به، وقال للضابط في شيء من الاستخفاف : ما هو الواضح يابا؟ خذوني إلى مركز الشرطة وأنتم تعرفون، ولكن أحد الجنود اقترب منه وقال له: يا بني امضي في طريقك بسلام، ولكن أقسم لنا إنك إذا وجدت أحداً بالطريق فلن تقول له إنك شاهدت كميناً هنا.

سحب فرسه و ركبها وانطلقت، ركض بها دون أن يفكر بالالتفات إلى الوراء، متوجهاً صوب مدينة صغيرة اسمها "الدور"، تقع على ضفة النهر المقابلة لمنطقة يقال لها "العوينات" التي تبعد عن قرية "العوجة"– حيث يعيش أهله– بضع كيلومترات قليلة.

كانت الساعة الحادية عشر قبل منتصف الليل، وهو يجتاز شوارع المدينة التي لم يكن قد قدم إليها منذ أربع سنوات ، وإذا به يجد نفسه وجها لوجه أمام الشرطة الواقفين أمام باب المخفر ، صعد الدم إلى رأسه، وانتابه القلق للحظة، لم يكن بوسعه– وقد رأوه– أن يستدير عائدا من حيث جاء ، فما عساه يفعل الآن؟ قرر مواجهة الموقف على طريقته الدائمة : الاقتحام، لكز فرسه وسار حتى حاذى الحراس الواقفين، وألقى عليهم بالسلام، فإذا بهم، من فرط دهشته، يردون التحية بأحسن منها، اخترق الطريق ووصل إلى قرب حافة النير، حيث وجد مقهى ما تزال به بقية من رواده ، ترجل من على فرسه، وسأل أحد الرواد: يابا أين العبارة؟ (العبارة هي زورق كبير ينقل العابرين من ضفة النهر التي تقع عليها الدور إلى الضفة الأخرى حيث توجد منطقة العوينات). وأشار إليه الرجل بالتوجه إلى أحد الرواد الآخرين الذي كان يملك تلك العبارة. فقال له: أريد أن أعبر أنا والفرس يا عمي وهذا نصف دينار، (كان ثمن العبور خمسين فلساً فقط). رفع الرجل عينيه إلى وجهه في تثاقل وقال له: لا أستطيع العبور، ممنوع بالليل، ألم تسمع عن منع التجول؟... يا عمي هذا دينار. لا يا عمي هذا دينار ونصف؟... لا أيضاً، تصلب الرجل في موقفه الرافض وقال : الحمد لله. لم يرد أن يعطيه أكثر حتى لا يشك به . فمضى إلى ضفة النهر وحده ووقف لحظة يفكر ، إن العبارة لا يستطيع أن يحركها إلا ثلاثة رجال أقوياء، فماذا يفعل؟ لا بد أن يكون قبل مطلع الفجر في منطقة أهله حتى يتدبر أمر خروجه من الحدود قبل أن يستفحل الخطر ويصبح عصياً عليه الهروب، نظر إلى فرسه مرة أخرى، ثم نظر إلى الضفة الأخرى البعيدة للنهر، وقد لفها الظلام إلا من بضع التماعات خفيفة تنعكس عليها من النجوم ، لا بد وأن يكون هناك بعد ساعات قليلة مهما كلف الأمر، ألقى عنان الفرس من يده وقبلها في جبينها، وتركها لتمضي مع قدرها ، وقرر أن يواجه هو أيضاً قدره: أن يبلغ

الضفة الأخرى سابحاً عرض النهر، في هذه الساعة الباردة المتأخرة من الليل، وجرحه ما زال يفرز ألماً حاداً في ساقه، لا يطيقه إنسان عادي.

ما من خيار أخر، خلع ملابسه كلها ولملمها في عباءته وكورها فوق رأسه وربطها بحبل حول رقبته، أما السكين الصغيرة فقد وضعها بين أسنانه، ثم ألقى بجسده في النهر، الله وحده يعلم من منحه تلك القوة التي تفوق قوة البشر في تلك الساعات العصيبة التي كان يصارع فيها الموج بجرحه النازف وكومة الملابس فوق رأسه مثقلة بالماء تدفع بجسده المنهك أكثر من مرة نحو الأعماق، وهو يقاوم، ويعاند الموج، يتحداه، ويتشبث بإرادة الحياة، كم بقي من عرض النهر؟ هذا الظلام كله يطبق ثقيلاً ضاغطاً، على النفس والجسد، قواه تخور شيئاً فشيئاً، وجرحه يعاديه ويسحب ساقه إلى الخلف، ولكنه يقاوم السقوط، يرفض الموت، ويطفو من جديد خفيفاً فوق السطح، وهذا الحبل الذي يلتف حول عنقه ويربط كومة الملابس الممزقة التي سترت جسده، وسترت هويته على طول الطريق، لماذا لا يقطعه الآن ويستريح من ثقله؟، إن عرض النهر لا ينتهي، لا ليس هذا دجلة الذي يعرفه تماماً، إنه صحراء من الثلج، ومع ذلك لا بد من الصمود ومواجهة كل قوى الموت.

وهم بأن يستل السكين من بين أسنانه ويقطع الحبل الملتف حول رقبته لولا أنه أحس بقدمه تمس شيئاً صلباً فأدرك أن عمق النهر بدأ يتضاءل معلنا هزيمته أمام إرادة خارقة تتشبث بالحياة، والشاطىء الذي كان بعيداً، بعد الحياة عن الموت، صار على مرمى حجر، رفع رأسه فوق الماء، وملأ رئتيه المجهدتين بهواء الليل البارد، وطرقت أذنيه أصوات الكلاب النابحة في الحقول المجاورة، ولم تمض سوى لحظة حتى كان جسده العاري يرتعش من شدة البرد وهو يسير فوق اليابسة، وكأنه طائرة صغيرة تهبط إلى الأرض وسط العواصف والأنواء.

ألقى بنفسه فوق وصل الشاطىء، كي يلتقط أنفاسه، ثم تذكر أنه لا يمكن أن يسير على الشاطىء عارياً هكذا، فارتدى ملابسه وهي مبللة، ومضى خطوات إلى الأمام فوجد بيتاً طينياً صغيرا أمامه، طرق الباب ثم دفعه دون أن يؤذن له كعادة أهل الريف في هذه المناطق، أطلت عليه امرأة في نحو الخمسين من عمرها، قصيرة القامة ترتدي لباساً أسود، وعلى وجهها وشم أخضر، وجدت أمامها شاباً مبلل الملابس يهتز جسده اهتزازات واضحة، وتطقطق أسنانه بصوت مسموع، في هذه الساعة المتأخرة من الليل، برد الفعل المباشر راحت المرأة تصرخ: حرامي، حرامي، إذبحوه، وأسرع يلحق بها من الداخل رجل يحمل في يده عصا غليظة رفعها في وجهه ويريد أن يهوي بها عليه، على الفور تمالك صدام نفسه، نسي البرد والجوع وخوار الجسد، وصاح في الرجل: ما هي القصة؟ أنتم من أنتم؟ ألستم عرباً؟ أتشاهدون واحداً على هذا الحال وتصرخون في وجهه: حرامي، حرامي، واستدار، وهم بأن يخرج، ولكن الرجل و قد استفاق إلى طبيعة الموقف رفض خروجه، وأصر على أن يبقيه في الدار.

أشعلوا النيران، وخلع ملابسه الخارجية وجففها، وظهرت ملابسه الداخلية نظيفة لا تتلاءم مع قدم وقذارة ملابسه الخارجية، وتنبهت المرأة إلى هذا التعارض الغريب، وراحت تنظر إليه بتشكك، ولكنها بمكر فطري قالت له معلقة على مظهره: "كله على الله يا ولدي، ياما يعلي وياما يوطي". أجابها في اقتضاب: كله على الله يا خالة.

عاد الدم إلى عروقه، واستعاد نفسه من جديد، وهم بأن يرتدي ملابسه المجففة ليخرج، وتنبه إلى أن الشاش الذي كان يربط جرحه قد سقط منه دون أن يدري في الطريق، وإذ رأى الرجل الجرح في ساقه نظر إلى المرأة، ونظرت إليه، وكأنهما قد فهما أمراً. قالا له: إلى أين تمضي؟ قال: إلى أهلي، قالا له: الحق إنك لم تجرح وأنت تقفز من الساقية كما قلت لنا منذ قليل، أنت قد عبرت النهر سباحة، ولا بد أن وراءك بلوى كبيرة، ونحن لن نتركك حتى الصباح كي نعرف حقيقتك... أتراه إذن قد خاض كل هذا النضال المضني كي تسلمه العجوز ورجلها فريسة سهلة للشرطة؟ كتم حنقه وقال لهما في هدوء : نعم صحيح، لنفترض أن هذا الذي تقولانه صحيح، وإنني قد ارتكبت جرائم كبيرة مع عشيرة من العشائر، وانهم يطاردونني، ويمكن أن يظفروا بي عندما يطلع النهار عندكم هنا، ويقتلونني، فهل تتحملون أنتم وزر هذه النتيجة، وأنتم لا علاقة لكم بالأمر؟ قالا في صوت واحد : يا بني: لا والله، اذهب الآن في أمان الله، خرج في الهزيع

الأخير من الليل وسار وحده على الطريق متخذ اً وجهته مدرسة العوينات الابتدائية التي سمع أثناء إقامته في بغداد أن أخاه "إدهام" يعمل حارساً بها، لم يكن يعرف الطريق إليها، ولكن كان عليه أن يسير حتى يجدها، وفجأة وجد أمام عينيه لافتة المدرسة، طرق الباب، وإذا بصوت إدهام يعلو من الداخل : من بالباب؟ قال صدام : أنا، أنا صدام. وعرف إدهام صوته من خلف الباب.

فتح الباب ورآه أمامه، جذبه إلى صدره وراح يقبله ويبكي ، تمالك صدام نفسه، وقال له: أنظر ليس هذا وقت بكاء، هيا بنا نذهب إلى دارنا ، أنا أسير من هذه الطريق وأنت تمضي في الطريق الأخرى الموازية ، وتستطلع الجو هناك، أنت تعرف كل شيء، فمن المحتمل أن تكون الشرطة قد داهمت البيت ، سأنتظرك في الأدغال المجاورة للبيت ، فإذا كانت الشرطة تطوقه سأذهب وأختفي في مكان آخر.

لم يكن إدهام يعرف ما جرى بدقة ، كل ما كان يعلمه أن محاولة جرت لاغتيال عبد الكريم قاسم، وإن الشرطة جاءت وفتشت الدار ولم تجد أحداً ممن تبحث عنهم، وصدام لم يقل له سوى عبارة مقتضبة: أنا كنت مشتركاً في العملية، دخل إدهام إلى بيت أبيه "الحاج إبراهيم"- عم صدام وزوج أمه- فدهش والده لمجيئه في هذه الساعة، قال له: لقد جاء صدام وهذه هي قصته، قال الوالد: وأين هو؟ قال إدهام: ينتظرني في الأدغال حتى استكشف إذا ما كان البيت مطوقاً أم لا، قال له: كما ترى، ليس هناك شيء، نادي عليه الآن. عندما دخل صدام إلى البيت احتضنته أمه وحبست دموعها ، أما الحاج إبراهيم فلقد كان متماسك الأعصاب، قوياً، مهيباً، باعثاً على تبديد القلق. كان يعرف أن الساعة هي ساعة التدبير الذكي البعيد عن العواطف التي يكبحها في نفسه ، قال له: خذ هذا الطعام، وهذا الماء، وفي الساعة الرابعة قبل طلوع الشمس بقليل تذهب إلى "سوبرات"، الأتراك (ملاجيء عسكرية كان قد أعدها الجيش التركي أثناء الاحتلال العثماني) وتمكث هناك حتى السابعة مساء، وبعد ذلك لا تأتي رأساً إلى هنا، وإنما تمكث في حقل الأذرة حتى آتي إليك وأصحبك إلى الدار بعد أن أتأكد من أنه غير مطوق أو مراقب أو به غريب ولا ينبغي أن يراك.

استجاب صدام لخطة عمه، ولكنه قبل أن يخرج في الرابعة صباحاً قال لإدهام: عندما يطلع النهار، تذهب إلى سامراء، وتبحث عن شخص اسمه عطا حسين السامرائي أو علي النقيب، وأي منهما- إذا وجدته- قل له صدام موجود.

في الصباح، فك إدهام قطعة من ماكينة مياه كانوا يملكونها، وحملها معه، وكأنه ذاهب إلى سامراء ليصلحها ، كغطاء لمهمته، دق باب عطا السامرائي، ولم يجده ، قالت له زوجته سيأتي في الخامسة عصر اً، انتظره حتى عاد، وأسر في أذنيه بالنبأ، قال له عطا، لقد كنا نبحث عنه طيلة الأيام السابقة، الآن اذهب أنت واسترح، لقد انتهت مهمتك.

في الساعة السابعة جاءت سيارة جيب عسكرية يقودها عطا حسين السامرائي ويصحبه ثلاثة أشخاص: عبد الخالق السامرائي، حمود العواد، حسين المحمود، ووقفت بعيداً في أطراف القرية، وأرسلوا إلى صدام أخاه حتى يلتقي بهم.

أقبل عليه عمه يودعه، ودخل هو إلى الدار فاحتضنته أمه ورفعت وجهها إلى السماء تطلب له السلامة ، ولم ينس وهو يغادر البيت أن يلقي بناظريه على شجيرة التوت التي كان قد بذر بذرتها بالقرب منه، أما النخلة التي زرعها فكانت قد بدأت تورق سعفاً أخضر.

قال له رفاقه أن هناك رفيقاً آخر سوف يصحبه في طريقه إلى الحدود السورية لأنه مطلوب أيض اً من الشرطة، وهو يقول عندما علم أن صدام حسين سيكون رفيقه في رحلة الهروب : أنا أحمله على أكتافي وأوصله إلى سوريا ، كان اسمه: فاتك الصافي.

لم يتخذ طريقه على الفور إلى سوريا، بل مكث مختفياً بعد ذلك عدة أيام، كان

لا بد من البحث عن دليل يقودهما في الطريق ، وكان في المنطقة رجل يدعى محمد سلطان يعيش متخفياً باسم مستعار في القرية لأن البوليس كان يبحث عنه لاتهامه بارتكاب جريمة قتل ، ولذلك لم يعرفه سوى قلة يثق بهم باسمه الحقيقي ، أما سكان المنطقة فكانوا يعرفون أن اسمه هو "عبد الله أبو نجم". ولقرب المنطقة من الحدود السورية فلأن محمد سلطان كان يعرف الطريق إليها، وكثير اً ما قطعه على دراجته البخارية متسللا عبر الحدود وعائد اً مرة أخرى إلى قريته، في

هذه المرة ذهب إلى سوريا وعاد، ليتكشف الطريق، فإذا بالشرطة تتكالب عليه، وتمسك به، فادعى أن لديه أغنام اً عبرت الحدود، فقالوا له– وكانوا يعرفون أن هناك من يتسللون بين الحدود عن طريق الأ دلاء الذين يعرفون هذه الطرقات جيداً– "هذه المرة تذهب واحداً وتعود واحداً، لا أن تذهب "اثنين" وترجع "واحداً".

كرر العملية، ولكن الشرطة كانت ما تزال منتشرة على طول الطريق . فنصحهم بأن يأخذ صدام وراءه على دراجته البخارية إلى منطقة "الثرثار" (وهي المنطقة المعروفة الآن بسد الثرثار وهي قريبة أيضاً من الحدود السورية ولكن من ناحية أخرى أشد بعداً من الطريق الأول) ومن هناك يذهب إلى سوريا مع الدليل على ظهر دابة ، لأن المسافة تستغرق ستة أيام سيراً على الأقدام.

ركب عبد الله النجم دراجته البخارية، وخلفه صدام حسين، وفاتك الصافي، ومضى بها إلى منطقة الثرثار، حيث وجدوا الدليل المتفق معه على أن يصحبهما إلى الحدود السورية، وكان اسمه "دحام الشمران"، اتفق عبد الله النجم مع دحام على كل شيء، دفع له خمسة وأربعين دينار اً، واشترى دابتين، إحداهما كبيرة، والأخرى صغيرة ، وزودهم بالخبز والتمر، وتمنى لهم السلامة، وتحركت القافلة الصغيرة في طريقها إلى الحدود السورية، عبر الطرق الصحراوية غير المأهولة، والتي لا يعرفها سوى أمثال هذا الدليل الذي اختلطت سنوات عمره بحبات الرمال.

كان يهتدي في طريقه بنجمة الليل ، إذا وضع الجدي فوق كتفه الأيسر فإن الحدود السورية ستكون هي وجهته الصحيحة، وما كانوا يسيرون في النهار، ح تى لا تكتشفهم دوريات الشرطة ، كان الليل هذه المرة هو رفيقه، رفيقهم، الأمين.

سبعة أيام بلياليها وهم يطوون رمال الصحراء ، دحام يركب الدابة الكبيرة، وصدام ورفيقه يركبان الدابة الصغيرة، وأحياناً ينفرد بها أحدهما، ويمضي الآخر الليل سير اً على قدميه، ما أكثر ما لقيتهم المفاجآت في الطريق ، أضواء سيارات الشرطة تمزق أستار الظلام التي يتخفون بها . دحام نفسه– الذي لم يكن يعرف هوية من يصحبهم– كثيراً ما عرضهم للمخاطر لأنه قد شم رائحة خبز، أو رائحة قهوة عربية على البعد، يريد أن يتبعها حتى بيوت الش عر التي يسكنها الأعراب، وتطول ليالي السفر، ويمتد الطريق.

سبعة أيام بلياليها وهم يقاومون برد الصحراء، وقلة الزاد، ويزرعون الرمال أمالا في الوصول، إن الحدود تبدو له الآن بمثابة الشاطىء الآخر الذي كان يصارع أمواج النهر حتى يبلغه ، ما أكثر الشواطىء الأخرى التي سوف يصارع من أجل أن يلقي عليها بمراسيه.

في الليلة السابعة نظر "دحام" من فوق دابته العالية وقال: أعطني كمية من تراب هذه الأرض، أنظر ما نوع هذه التربة؟ قال له فاتك: فيها حصو وبها... لم يواصل دحام الاستماع إليه، قال على الفور: لقد وصلنا داخل الحدود.

صحيح، أخيراً... اتجهوا إلى خيام الأعراب القريبة، فأيقنوا أنهم عرب سوريون ، قضوا ليلتهم في ضيافتهم ، وفي الصباح– ولأول مرة يسيرون في نور الصباح– اتجهوا إلى "البو كمال" أول مركز على الحدود السورية– العراقية ومنها إلى "دير الزور"، وهناك اتصلوا بأمين الحافظ، وكان قائد اً عسكرياً للمنطقة الشرقية، فاستقبلهم على الفور– وكانت لديه معلومات عن قرب وصولهم – وأكل دحام خبزا حار اً، وشرب قهوة عربية، ولكن ليس في بيوت الشعر التي يسكنها الأعراب هذه المرة.

في الشام مكث صدام حسين ثلا ثة أشهر، وفي الحادي والعشرين من شهر فبراير– شباط عام 1960، غادر الشام، وهبطت طائرة تحمله إلى عاصمة الجمهورية العربية المتحدة، في مطار القاهرة الدولي.

7– عودة الروح من جديد

يومها، كانت القاهرة كشأنها دائما في مراحل المد الوطني والقومي، عاصمة لكل المناضلين العرب، القادمين من كل ركن فيه، تفتح لهم ذراعيها، وتحتضن قضاياهم، وتحنو على آمالهم في أن ينتهي القهر والاستغلال والتبعية للأجنبي

بأقطارهم، وفي أن يصبح هذا الوطن الكبير الممتد من الأطلسي حتى الخليج، دولة واحدة ديموقراطية واشتراكية، يحيا في ظلها شعب واحد، حر وسعيد. ولقد مر معظمهم من هنا، عرفتهم مقاهيها ونواديها وفنادقها وساحاتها وشوا رعها وأحياؤها الجميلة ، وهم أيضاً قد عرفوها وأحبوها وتعلقوا بها، وبناسها الطيبين ، ساسة وقادة جيوش ورؤساء دول سابقين ولاحقين، وكتاب ومفكرين وشعراء وفنانين، لم تبخل عليهم المدينة العريقة برحيقها العذب، وهم لم يبخلوا عليها كذلك بعطر الوفاء. وعندما سوف يعودون يوماً إلى أقطارهم ستظل في أعماقهم، حية على الدوام، ذكريات الأيام التي هصروا زهراتها على ضفاف النيل.

لقد عاش صدام حسين ثلاث سنوات وبضعة شهور من عمره في القاهرة. وجاب مصر كلها من شمالها إلى جنوبها، من الاسكندرية حتى الأقصر وأسوان، كان حينذاك، في بداية قدومه إليها، في الثالثة والعشرين من عمره شاب طويل، نحيل، وسيم الطلعة، مهندم الثياب، يملك عينين نفاذتين مثل بلورتين من الماس تشعان ذكاء ويقظة ، ولم تكن ظروفه في العراق قد أتاحت له أن يتم دراساته الثانوية، فالتحق بمدرسة قصر النيل الخاصة، بالصف الخامس، حتى يحصل على الشهادة التوجيهية، وسكن مع عدد من رفاقه المناضلين والهاربين من أحكام الإعدام- مثله- في "فيلا" استأجروها جميعاً في حي "الدقي"، وبدأ فصلا جديدا من حياته.

لم يكن مثل بعض أترابه الذين يتركون أقدامهم تسحبها دوامات المدينة اللاهية، بكل ما تتيحه من أفانين المتعة الشخصية وفنونها، كان في معظم أحواله جاد اً إلى حد الصرامة، مهموم اً إلى درجة الحزن، منشغلا بدروسه تارة، وبتحولات السياسة تارة أخرى، إلى المدى الذي كان يدفعه إلى أن يمضي وحيداً ليجلس في "كازينو قصر النيل" يتأمل مياه النهر السمراء وهي تجري أمامه بغير انقطاع، أو يسلك طريقه إلى إحدى الحدائق العامة يجوس بين أشجارها، ويقضي ساعة أو ساعتين تحت ظلالها، ثم يعود إلى بيته ليتابع وقائع حياته اليومية، مثل عقارب الساعة ، المتعة الوحيدة التي كان يتذوقها، غير القراءة، والتجوال في حدائق المدينة، والترحال إلى مواطن الآثار المصر ية القديمة، كانت لعبة "الشطرنج"، وربما لا يثير الغرابة أن نتذكر الآن أنه كان لاعبا ماهر اً، ذلك لأن تاريخ هذه اللعبة- يحفظ أسماء عدد كبير من القادة في الشرق والغرب كان من بينهم جمال عبد الناصر- برعوا في تحريك "قواتهم" على الرقعة الصغيرة، وكأنهم يتدربون على تحريكها، فيما بعد، في ساحات الحروب والمعارك، وفيما عدا ذلك كان صدام يخلو إلى نفسه بين الحين والآخر ليكتب بضعة أسطر، مع مسافر إلى العراق، إلى عمه الحاج إبراهيم، وأمه ، أو إلى خاله الحاج خير الله طلفاح، أو إلى واحد أو أخر من إخوته.

بعد شهور قلائل من ذهابه إلى القاهرة بعث برسالة إلى عمه يقول له فيها إنه يريد أن يتزوج، وإن اختياره وقع على ابنة خاله: ساجدة خير الله طلفاح. وعندما وصلت الرسالة إلى الحاج إبراهيم، وعرف فحواها، قال : "والله زين ما فعل الولد"... فالزواج عند كل الأسر المحافظة في بلادنا كلها، وخصوصا الزو اج المبكر، هو الواقي من شر الغواية، والعاصم ضد الفتن.

حمل الحاج إبراهيم الرسالة في جيبه، وتوجه- بعد الاتكال على الله- إلى بيت الحاج خير الله، وطلب منه يد ابنته . واستجاب الخال على الفور، وقال إن شاء الله عندما يعود إلى وطنه العراق سوف يتزوجان، أما الآن فهي خطيبته الموهوبة لاسمه. ارتاح قلب العم، ولملم عباءته، ونهض ليزف النبأ لأمه، أما هي، ساجدة، فلقد ومضت فرحة عميقة في عينيها، غلفتها قطرتان م ن الدمع دارتهما سريعاً حتى لا يراها أحد . كان صدام رفيق عمرها، منذ أن هرب من بيت عمه في القرية، وطرق باب بيتهم حاملاً رغبته المتأججة في أن يلتحق بالمدرسة ، ومن يومها وهو لم يغادر بيتهم إلا ليعود إليه، ولقد شبت هي معه، وتنقلت معه- أو تنقل معها- من تكريت إلى بغداد، وصاحبت نموه وتفتحه ونضجه، وراقبت نضاله وهو يتصاعد مع صعود وعيه، وأضمرت له في قلبها احترام اً وتقديراً وإكباراً، ولما كانت تفصح عنه كعادة البنات في الأسر المحافظة، وعندما عرفت منذ شهور أنه استطاع اجتياز الحدود بسلام، بعد محاولة اغتيال قاسم،

وإنه الآن آمن، اطمأنت روحها القلقة، واستشعرت السلام في أعماقها، وتمنت له أن يعود إلى وطنه منتصراً ، وها هي ذي الآن، قد صارت خطيبته، فمتى تراه يعود؟.
لن تطول السنوات بالفارس المسافر، ولن يظل شراعه سابحاً في بحر بلا شاطىء، فهناك خلف الأفق، عما قليل، سوف يضيء الفنار، ويعود كل قارب إلى مرساته، وهو نفسه يحس في داخله بأن ذلك اليوم لن يكون بعيدا ، فهو يثق في شعبه، ويؤمن إيماناً راسخاً بقوى حزبه، ويدرك فوق ذلك بأن هذه هي إرادة ا لتاريخ.
ومع ذلك، فإن المناضل الحقيقي يمارس نضاله على الدوام، مهما كان المكان الذي يدفع إلى البقاء فيه بعض سنوات عمره، وهكذا كان صدام حسين، بمجرد هبوطه أرض القاهرة انضوى تحت لواء التنظيم الحزبي في مصر . وما فتىء يتصاعد في مراتبه، بتصاعد نضاله، حتى صار عضواً في لجنته القيادية التي ما كانت تشرف على التنظيم داخل مصر وحدها، وإنما على التنظيمات الأخرى المنتشرة في شمال أفريقيا العربي، وقطاع غزة، والسودان، والجزيرة العربية كذلك.
وكان لا بد وأن يلفت النشاط الكبير الذي يمارسه، وتمارسه خلايا وفرق تنظيمه كلها، أنظار أجهزة الأمن المصرية ، وهي أجهزة كانت تتضخم- لسوء الحظ- في تلك الفترة، بسرعة سرطانية، وتبحث عن ممارسة نفوذها وسيطرتها، المستقلة في بعض الأحيان عن نفوذ وسيطرة الدولة في توجيهاتها المركزية- بحكم تضخمها نفسه- عن طريق بعض الإجراءات الكريهة إزاء المناضلين العرب الذين اتجهوا للاحتماء بالخيمة المصرية، من قهر الطغاة في بلادهم، ومع أن تلك الممارسات الكريهة كانت تقع على المواطنين المصريين أنفسهم، فان صورتها ووقعها على المناضلين العرب كانت أبشع وأشد نكراً.
بين الحين والآخر، كان صدا م يعود إلى بيته فيجده قد فتش ركن اً ركناً، وإن أوراقه قد قرئت، ولعلها صورت أيض اً، وبين الفينة والفينة تستدعى واحد من الرفاق إلى مبنى المباحث العامة البغيض بوزارة الداخلية، و تستجوب، وتوضع إرادته رهناً بين المطرقة والسندان، بين الترغيب والترهيب ، حتى أوشكت القاهرة بالنسبة لهم أن تصبح سجن اً آخر، وكان لا بد من وضع حد لكل هذه السخافات التي تمارسها أجهزة المباحث العامة . فقرر خمسة من المحكومين بالإعدام أن يتصلوا برئاسة الجمهورية، ويضعوا أمامها صورة لما يجري لهم ، كتبوا رسالة واضحة، بأنه إذا استمرت هذه الحملات البوليسية غير المفهومة، فإنهم سوف يسلمون أنفسهم للسلطات العراقية التي تنتظرهم لتنفذ بهم حكم الإ عدام.
ووقع الرسالة خمسة : صدام حسين، كريم الشيخلي، حاتم العزاوي، طه ياسين العلي، مدحت إبراهيم جمعة ، وبعد وصول الرسالة بفترة قصيرة، استقبل الشيخلي مندوب اً عن رفاقه ممثل لرئاسة الجمهورية، وقال له الكلمات المناسبة التي تقال عادة في مثل هذه الظروف: والله نحن لا نعلم، إنه خطأ الأجهزة التي تتصرف بدون تعليمات. لا، أنتم بالتأكيد أحرار في وطنكم... الخ.. المهم أن المتاعب بعدها، أصبحت أقل وطأة، على الأقل صارت أكثر تحضرا، أو أشد خفاء مما كانت قبلها، (يؤكد بعض الأشخاص الذين كانوا قريبين من رئاسة الجمهورية في القاهرة حينذاك أن كل تلك المضايقات تمت من جانب جهاز المباحث العامة المصرية دون علم المسؤولين في رئاسة الجمهورية، ويضيف بعضهم قائلاً إن "فؤاد الركابي" الذي فصل من حزب البعث العربي الاشتراكي لعب دوراً مهماً في استعداء جهاز المباحث العامة على رفاقه السابقين)؟.
لم تطل الأيام بعدها ، كان صدام حسين عائدا من رحلة مع كليته- كلية الحقوق- إلى الأقصر وأسوان، وما كاد يدخل إلى الحمام، ويفتح "الدوش" فوق رأسه، حتى دق جرس التليفون، وإذا بكريم الشيخلي يدق عليه الباب ويصيح : صدام، صدام. فتح جانباً من الباب ليرى رفيقه، ويعرف ما جرى ، قال كريم وهو يمسك بسماعة التليفون ويصرخ في نشوة بأعلى صوته:
صدام... صدام... لقد قامت ثورة في العراق... ثورة في العراق... أقول، ثورة في العراق، هل تسمعني؟.

8- سفينة الثورة بلا ربان حكيم

عندما بدأت التحركات في بعض القطعات العسكرية ضد حكم عبد الكريم قاسم الدكتاتوري الفردي، لم تلق أية مقاومة عسكرية، فقاسم قد تقهقر مع حفنة قليلة من الضباط الذين يتبعونه إلى وزارة الدفاع، وهناك دارت معركة محدودة- هي المعركة الوحيدة- بين أنصاره داخل الوزارة، وكل القوى العسكرية والمدنية الثائرة عليه.

كان نظامه قد تهالك تحت وطأة تناقضاته الداخلية، ولم تكن أهداف الثورة المجيدة قد تحقق منها إلا النذر اليسير، وحتى هذا النذر اليسير بات مهدداً، يتأرجح على حافة هاوية، ولم يكن قد بقي من القوى الوطنية داخل البلاد، سوى الحزب الشيوعي العراقي- أو بالأحرى قيادته- نصيرا لحكمه ومؤازراً له، تحت وهم إمكانية احتوائه وترشيد النظام بعد ذلك، من جانب، وتحت إلحاح الخوف من سيطرة القوى القومية- وخصوصاً حزب البعث العربي الاشتراكي - على البلاد، في حالة انهيار حكمه، وما سوف يترتب على ذلك من تصفية الحسابات.

وحينما بدت اللحظة وشيكة، ولاح فيها بوضوح أن نظام قاسم يهوى على عروشه، بضربة من قوى البعث وحده، استشعر الشيوعيون فداحة الخطر بالنسبة لهم، وارتكبت قيادة الحزب الشيوعي ساعتها الخطأ القاتل في تاريخها، وهو لسوء الحظ كان خطأ من الفداحة بحيث سوف تدوم آثاره سنوات طويلة بعد وقوعه، حتى بعد أن يصحح الحزب الشيوعي رؤيته الأيديولوجية بعد ذلك بسنوات.

لقد أصدرت قيادة الحزب الشيوعي يومها، منشورها الشهير الذي تقول فيه:

"أيها المواطنون، إلى السلاح لسحق المؤامرة الاستعمارية الرجعية.

يا جماهير شعبنا المجاهد العظيم.

أيها العمال والفلاحون والمثقفون وسائر القوى الوطنية والديموقراطية.

قامت زمرة تافهة من الضباط الرجعيين المتآمرين بمحاولة يائسة للسيطرة على الحكم، تمهيداً لإرجاع بلادنا إلى قبضة الاستعمار والرجعية، فسيطرت على الإذاعة في أبي غريب، وهي تحاول أن تثير مذبحة بين أبناء جيشنا الباسل لتنفيذ غرضها السافل الدنيء في السيطرة على الحكم".

"إلى الشوارع يا جماهير شعبنا الأبي المجاهد، لكنس بلادنا من الخونة المارقين".

"إلى السلاح للدفاع عن استقلالنا الوطني وعن مكاسب شعبنا ، إلى تشكيل لجان الدفاع عن الاستقلال الوطني، إلى الأمام، إن الشعب بقيادة القوى الديموقراطية سيلحق العار والهزيمة بهذه المؤامرة السافلة ... إننا نطالب الحكومة بالسلاح، إلى الأمام، إلى الشوارع، إلى سحق المؤامرة والمتآمرين". (من بيان الحزب الشيوعي العراقي الذي صدر في بغداد 1963/2/8).

وبطبيعة الحال لم تستجب لهم "الحكومة"، ولم تقدم لهم السلاح، لسبب بسيط هو أن عبد الكريم قاسم نفسه، وقد كان يتصور أن بوسعه قمع الحركة الثائرة ضده بمفرده، ما أراد أن يضع السلاح في أيدي الشيوعيين الذين لم يكن يثق بهم رغم كل ما قدموه له من مساندة ودعم، إلى حد النزول في الشوارع للدفاع عنه، ولسبب أكثر بساطة وهو إنه لم تكن ثمة "حكومة" آنذاك يمكنها أن تعطي أو لا تعطي السلاح، فالحكومة التي هي عبد الكريم قاسم في النهاية كانت محاصرة في وزارة الدفاع تحارب معركتها الأخيرة، المعزولة، الخاسرة في خاتمة المطاف.

غير أن قيادة الحزب الشيوعي لم تفقد الأمل، وأصدرت بياناً آخر أشد حماساً وأعلى نبرة:

"إلى السلاح لقمع مؤامرة الاستعمار والرجعية".

"أيها الشعب العظيم... اسحقوا المتآمرين الخونة دون رحمة، استولوا على السلاح من مراكز الشرطة، وفي أي مكان وجد فيه، وهاجموا المتآمرين عملاء الاستعمار".

"إن الزعيم عبد الكريم، والعبدي، والمهداوي، وسائر الضباط المدافعين عن استقلالنا الوطني يمسكون الآن بدفة قيادة الجيش".

"الحزم والجرأة والإقدام لصيانة الاستقلال الوطني".
"إلى السلاح، إلى الهجوم في كل أنحاء بغداد والعراق لسحق جيوب عملاء الاستعمار المتآمرين". (من بيان آخر أصدره الحزب الشيوعي العراقي في نفس اليوم 1963/2/8).
واستجابت بالفعل بعض تجمعات الشيوعيين لهذه النداءات المحمومة ، وحمل أفرادها أسلحة خفيفة كانوا يملكونها، ووجهوا نيرانها إلى القطعات العسكرية الموالية للثورة الناشئة، كمحاولة لإعطاء المقاومة دفعة تشجيع ومساندة ، ولكن هذه المحاولات، لم تكن في الواقع سوى عمليات انتحارية، مجانية، ليس لها بكل المقاييس ما كان يمكن أن يبررها ، فالدفاع عن الجمهورية والاستقلال الوطني، ليس هو بحال من الأحوال الدفاع عن قاسم ودكتاتوريته الفردية. وفضلا عن ذلك، وأهم منه، إن الاستقلال الوطني لم يكن في خطر، والجمهورية لم تكن تتعرض في تلك اللحظة للسقوط، فالذي كان في خطر هو عبد الكريم قاسم فقط، والذي كان يسقط بالفعل هو ديكتاتوريته وإرهابه الفردي، وبعد ذلك كله تأتي حسابات القوى. فما معنى الزج بقاعدة الحزب الشيوعي في نضال يائس، دام، محكوم عليه منذ البداية بالإخفاق والفشل؟ من أجل ماذا؟ إن قاسم نفسه كان يحاول من وراء الستار أن يلعب بكل القوى على المسرح السياسي كما يلعب الممثل في مسرح العرائس بالدمى. ولم يكن حريصاً على شيء سوى استمرار حكمه، وبقائه في مقعده . والدليل على ذلك أنه حاول ضرب الشيوعيين أنفسهم أكثر من مرة، وبأكثر من طريقة ، ولكنهم في عمق أوهامهم، وإحساسهم الخاطىء بقوة لم تكن لهم بالفعل، ظلوا يتابعون اللعبة، هائمين في صحراء الدكتاتورية الفردية، خلف سراب لم يصلوا، وما كان بوسعهم، أن يصلوا إليه قط، والنتيجة هي ذلك المهرجان الفاجع للانتحار الجماعي.
كيف تحدث المآسي الكبرى في التاريخ؟ وما هي الجدوى في النهاية، بعد أن تقع ا لمأساة، وتكتمل فصولا، أن نتعرف على أسبابها وأصولها ودواعيها؟ ألكي نتجنب وقوعها مرة أخرى؟ ربما. ولكن ما جريمة الضحايا الذين سقطوا بالمئات أو بالآلاف على أ رصفة التاريخ دون شاهد حتى ليذكر بقبورهم؟ من يعرف الآن أسماء الذين سقطوا في المو صل وكركوك والبصرة وبغداد، في صراع دام، مجاني، بين أبناء الوطن الواحد؟ من الذي يعوض الوطن عن أبنائه، مهما ندمت، واستنكرت، واستغفرت، حفنة من المخطئين أو المنحرفين دفعت بهم إلى اله اوية تحت وطأة الخطأ أو الانحراف أو حتى الجريمة؟
ومع ذلك فإن التاريخ من فرط مفارقاته يبدو عبثيا في بعض الأحيان، إن الذين أطلقت عليهم منشورات الحزب الشيوعي الهوجاء في صبيحة 8 فبراير- شباط 1963، صفات التآمر والخيانة، والعمالة للاستعمار، ودعت أعضاءه لرفع السلاح في وجوههم، وسحقهم، هم أنفسهم الذين سوف يجلس إليهم قادة الحزب الشيوعي العراقي، بعد ذلك بعشر سنوات، ليعقدوا معهم في يوليو- تموز 1973، ميثاق الجبهة الوطنية والقومية التقدمية، ومن المستحيل أن يتصور المرء أن "المتآمرين"، و"الخونة"، و"عملاء الاستعمار"، قد تا بوا عن "تآمرهم"، ورفضوا "الخيانة"، ونبذوا "العمالة للاستعمار"، حتى أن قادة الحزب الشيوعي قد ارتضوا أن ينخرطوا في جبهة "وطنية" و"قومية" و"تقدمية" معهم، بل نص ميثاقها على أنها تحت قيادتهم، أي قيادة حزب البعث العربي ا لاشتراكي.
إنه التاريخ، الذي هو مأساوي في جوهره، كما كان يقول هيغل. ومع ذلك فما أشد فداحة الثمن الذي تدفعه الشعوب، وجماهير الناس البسطاء دائماً. لقد ذكر ميشيل عفلق الأمين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي يومها (2/20/ 1963) موقف البعث من الشيوعية قائلا:
"ليس لنا موقف سلبي من الشيوعية كعقيدة، فنظ رتنا إلى الماركسية هي نظرة تقدير، ونحن كاشتراكيين نقتبس أشياء كثيرة من الماركسية، أما بخصوص التعايش مع الأحزاب الشيوعية في الأقطار العربية فالأمر يختلف، فهذه الأحزاب برهنت في كثير من الأحيان على عدم تفهم الحركة القومية العربية، ووقفت في أكثر الأحيان بوجه هذه الحركة الشعبية.
"والحقيقة أن هذه الأحزاب، بالنسبة لحركة التحرر والوحدة الاشتراكية، لا يمكن تصنيفها في اليسار، بل هي تقف في الصف اليميني، لأنها عائق في

وجه تحرر الجماهير وتقدمها.

"كان الشيوعيون معادين، بصراحة، للوحدة التي هي مطلب جماهيري، وقد باشروا مذابح وأعمالا همجية لصد هذا التيار، وأنا حريص جداً على القول، بأن الحزب : حزب البعث العربي الاشتراكي، حذر جداً من الانزلاق في موقف معاد للشيوعية، لمعرفته بأن هذا خير سبيل لتدخل الاستعمار والرجعية واستغلالها الموقف ..." (جريدة الجماهير العراقية 1963/2/20).

أما أحمد حسن البكر الذي كان رئيساً للوزراء صبيحة 1963/2/8 فلقد أعلن أن "موقف الثورة من الذين حملوا السلاح بوجهها لا يعني أن الثورة تحارب الشيوعية كعقيدة، وقال:

"من الساعات الأولى للثورة، نشر الحزب الشيوعي العراقي بياناً يدعو فيه أعضاءه وأنصاره إلى حمل السلاح في وجه الثورة، وينادي فيه صراحة بالتقتيل والإبادة، وكان الموقف الذي اتخذته الثورة موقف دفاع عن النفس ... لقد كنا أمام أحد أمرين: إما أن نقف بقوة ضد الردة، وإما أن نتراجع عن كل قيمنا ومبادئنا ونترك الثورة لأن الشيوعيين قاوموها... وقد اخترنا الحل الأول، لأنه الحل المنطقي والمعقول...".

"إننا لا نحارب الشيوعية كعقيدة، وإنما نتخذ تدابير وقائية ضد تنظيم سياسي معين، في قطر معين، أثبتت التجربة إنه ضد الثورة العربية والوحدة العربية".

"إننا كيساريين عرب، نناضل ضد الاستعمار، ولا ننسى المواقف الودية التي وقفها الاتحاد السوفييتي من بعض القضايا العربية، وخاصة في المراحل الأخيرة من تاريخنا القومي، ولكننا مصرون على بناء تجربتنا الاشتراكية الخاصة... " (جريدة الجماهير العراقية 1963/4/14) ".

مهما يكن الأمر، فلقد مضت الثورة في عمرها القصير تحاول أن تحفر طريقها وسط الصخر، وتحارب على أكثر من جبهة، وتسعى لأن تحقق الأهداف التي قامت من أجلها.

"لقد أكدت على أهمية السير قدماً في طريق التحويل الاشتراكي للمجتمع على أساس ديموقراطي، وبمشاركة الجماهير الشعبية، واعتبرت العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين من عسكريين ومدنيين، والبورجوازية الصغيرة، هي القوة التي تصنع بتحالفها الثورة الاشتراكية في مرحلتها الأولى".

"كما أكدت على أهمية الإدارة الديموقراطية العمالية لوسائل الإنتاج، واعتبرت الثورة الزراعية خطوة لا بد منها، لنمو اقتصاد سريع، وانتبهت إلى أن إشراك الفلاحين في تنفيذ الثورة الزراعية، شرط أساسي لنجاحها".

"وأكدت كذلك على أهمية حرية المنظمات الشعبية- العمالية والفلاحية والمهنية والنسوية- واستقلالها الذاتي والشعبي عن السلطة كضرورة يمليها الدفاع عن مصالح تلك الفئات والطبقات".

وهكذا فإن "الشهور القليلة التي تشكل عمر الثورة قد حفلت بمنجزات كثيرة في حقول الإصلاح الزراعي والتصنيع والتخطيط، كما حفلت بمشاريع عديدة تم إنجازها بالعمل الشعبي، معتمدة على سواعد الفلاحين والعمال والجنود والمثقفين الثوريين. وحرصت الثورة على تأمين مصالح الطبقات الكادحة، وفي طليعتها الطبقة العاملة، وذلك بتشريع القوانين التقدمية، وحماية هذه الطبقات من الاستغلال والتعسف " (نص من خطاب الرئيس احمد حسن البكر بمناسبة ذكرى ثورة 8 شباط - جريدة الثورة العراقية - 1970/2/9).

ومع ذلك فإن الثورة لم تستطع أن تواصل طريقها، كانت ما تكاد تمضي خطوة حتى تتعثر بعدها، كانت تحاول أن تسير على حبل مشدود بين هاويتين : الحصار والالتباس، فأجهزة الإعلام في أوروبا الاشتراكية، العلنية والسرية، لم تكف تحت وطأة المعلومات التي يقدمها لها الشيوعيون العراقيون وبتأثير الصراع الذي جرى بين الشيوعيين والثورة الجديدة، عن مهاجمة النظام الذي لم يكن قد شب بعد عن الطوق، فضلا بطبيعة الحال عن هجوم القوى الاستعمارية والرجعية عليه. وشيئاً فشيئاً وجدت الثورة نفسها محاصرة داخل حدودها، والأسوار ترتفع حولها يوماً بعد يوم.

ومن جانب آخر فإن السلطة الجديدة التي تسلمها حزب البعث العربي الاشتراكي بمفرده لأول مرة، محاولا أن يطبق أفكاره ويصنع تجربة خاصة بالمعنى السياسي والأيديولوجي، كانت يوم اً بعد يوم كذلك تفقد وحدة قيادتها، وتتسلل إليها عوامل التفكك والتكتل والانقسام. وكانت تفتقر إلى "الربان الحكيم"، وربما "الحكيم والحازم" في نفس الوقت، ومن ثم بدأت تنزلق من قمتها إلى منحدر سحيق، سوف ت هوى بداخله، في جملتها، صبيحة الثامن عشر من نوفمبر- تشرين ثاني، حينما ينقلب عبد السلا م عارف على البعثيين ويستأثر بالحكم وحده، متنكر اً للذين رفعوه، محطم اً الجماجم التي حملته إلى كرسي الرئاسة ذات يوم، منذ تسعة أشهر.

ومرة أخرى، يتجلى التاريخ مأساويا في جوهره.

9- هذا القرار لن التزم به

حينما هبط صدام حسين بغداد، بعد قيام الثورة، ألحقه الحزب عضو اً في "مكتب الفلاحين المركزي"، وظل يعمل فيه حتى وقع انقلاب عبد السلام عارف في 18 نوفمبر- تشرين الثاني عام 1963.

وفي الشهور الأخيرة من عمر الثورة القصير، استطاع بذكائه، أو لنقل بحسه التاريخي المرهف، أن يلتقط ظواهر طافية على سطح الحياة السياسية تثير استغرابه، ثم ما لبث استغرابه أن أصبح استرابة، ثم غدت الاسترابة يقيناً في أعماقه بأن الثورة تمضي إلى حتفها لا محالة.

كان غياب "الربان الحكيم والحازم" يثير قلقه، ويدفعه الإحساس بأن الثورة تقفز نحو مصيرها المجهول والمحتوم، وما عزز لديه ذلك الإحساس طبيعة المناقشات التي جرت في المؤتمر القطري الخامس لحزب البعث الذي انعقد في العراق حينذاك، لقد تبين له أن القيادة منقسمة على نفسها، وأسوأ ما في الأمر أن الانقسام لم يكن ينهض على ركيزة أساسية أو أيديولوجية، ثم تكشفت له فداحة الكارثة المقبلة حينما عجز المؤتمر عن حسم الصراع الناشب بداخله، على الرغم من حضور ممثلين للقيادة القومية جلساته، لا المؤتمر قادر على الحسم، ولا القيادة القومية بقادرة، بل إن قطبي الصراع في المؤتمر ينتخبان بتساوي الأصوات في نهاية المؤتمر. إذن فالمعنى الوحيد الذي يمكن أن يستخلص هو أن سفينة الثورة تشدها من جانبيها قوتان متوازيتان، وما من ربان يستطيع أن يحسم أو يثقل كفة واحد من الجانبين- أو الأصح أن يجعل كفة الحزب بمبادئه وتقاليده إلى جانبه- وانقسامها إلى شطرين بات قدراً لا مفر منه.

ولم يكن بوسعه أن يصمت، كان مجرد عضو عادي ساعتها، يده بعيدة عن زمام القيادة، غير أنه على الأقل كان يملك الشجاعة والمقدرة، ووضوح الرؤية، ونزاهة الارتفاع فوق التكتلات والشلل، ومع ذلك بدت كلماته غريبة الوقع في أذان سامعيها، فمن هو ذلك الذي يأتي إلى مثل هذا المؤتمر معتصماً بما يؤمن به من مبادىء فقط، ويهاجم التكتل والشللية والمصالح الشخصية والضغائن الذاتية، ويتحدث بهذه النبرة الموضوعية عن وحدة الحزب، وكأنه مبشر جاء يدعو إلى الصلاة قوما ضالين؟.

لقد مارس هذا الدور عبر كل المؤتمرات الحزبية التي حضرها وصو لاً إلى المؤتمر القطري، ولكنه رغم كل ما أحيط به في المؤتمر القطري، استطاع أن يصل إلى المؤتمر القومي بالانتخاب ، ساعدته على الوصول إليه اللعبة التكتلية نفسها التي غرق فيها الآخرون، فضلاً عن أصوات أعضاء المحافظات الذين بدوا في تلك اللحظات العصيبة حيارى مضيعين لا ناقة لهم ولا جمل فيما يدور حولهم من صراعات لا مبدئية. وعندما وقف في المؤتمر القومي الذي عقد في دمشق، كرر نفس قناعاته فيما يتعلق بتشخيص الموقف في بغداد ، بل انبرى للهجوم على من اعتبره مسؤولا عن دفع سفينة الثورة للارتطام بالصخور: علي صالح السعدي، بوصفه أم يناً لسر القطر، فلقد كان صالح السعدي- كما ظهر جلياً أمامه في قاعة المؤتمر- رجل الاندفاع الطفولي بغير حسابات، رجل العبارات الثورية الفارغة، وما أكثر ما قتلت العبارة الثورية الفارغة، روح الثورة.

يومها وقف صدام حسين أمام كل أعضاء المؤتمر القومي السادس- وقال كلمات كالنبوءة: "إنني لا أعتقد أن المؤتمر القومي القادم سينعقد والثورة مستمرة في القطر العراقي "... ولم يمض بعدها إلا شهر ونصف شهر، حتى كان عبد السلام عارف يضرب ضربته الغادرة، ويفتح أبواب السجون والمعتقلات للبعثيين، ويسعى بحماس محموم لتصفية البعث، وينفرد وحده- عبر انقلابه- بمقاليد السلطة.
كانت الأيام القليلة السابقة على الانقلاب بالغة الدلالة على ما يجري وما سوف يجري بالنسبة له . قبل الانقلاب بأربعة أيام، كان جالساً في مكتب الفلاحين مع بعض رفاقه، من بينهم أحمد العزوز ومحسن شعلان وسيد حسين جبر، وإذا بشخصين يدخلان عليهم، وقد صوبا رشاشاتهما نحوهم : ارفعوا أيديكم وسلموا، وبسرعة البرق سحب صدام مسدسه الذي كان يحمله دائماً وصوبه نحوهما. ما هي القصة؟ لا أحد يجيب .. ولكن المفاجأة جمدت أصابعهما . وبدا أن أي إطلاق للنار من أحد الجانبين عبر هذه المسافة الصغيرة سوف يؤدي إلى مقتل الطرفين، ولم يكن بوسعهما إلا أن يجريا وهما يطلقان النار خلفهما فأصابا فلاحا اسمه ياسين كان عضواً في اتحاد بغداد للفلا حين. وعندما انتشر النبأ زيفت الحقيقة وقالوا إن صدام هو الذي أطلق النار على الحرس القومي، فأصاب واحداً وقتل أخر.
وبعدها بيومين كان يركب سيارته "الفولكس فاغن"، متجها إلى ناحية الكرخ على الضفة الأخرى للنهر، وكان إلى جانبه أحمد طه العزوز، وإذا بالحرس القومي يعترض طريق السيارة ويرفع رشاشاته مرة أخرى وجهه: قف، قف.
وعندما توقف، جاءه "لطيف الدليمي"- وكان ذلك أول لقاء بينهما - وتحدث معه، وبعد ذلك تنبه الدليمي إلى أن من بالسيارة رفاقاً له، فطلب إلى أعضاء الحرس القومي المتحلقين حوله ألا يوجهوا لهم أية كلمة نابية، وركب لطيف معهما بالسيارة وأوصلهما إلى مقر القيادة العامة للحرس القومي استجابة لأمر صادر منها باعتقال صدام حسين وأحمد العزوز، ولكنه هناك لم يجد أحداً، ظل ساعتين جالسا في مقعده ومعه رفيقه، دون أن يقول له أحد كلمة ، وإذا برفيق له هو حاتم العزاوي- رفيقه في عملية اغتيال عبد الكريم قاسم- يدخل على مقر القيادة وقد ارتدى ملابس الحرس القومي، وبيده غدارة، وصرخ بأعلى صوته: أريد أن يقول لي أحد ماذا فعل صدام، ولم يجبه أحد، فعاد يقول : أفهم من هذا أن ليس هناك مشكلة معه، ولم يجبه أحد، فنظر إلى صدام وقال له: إذن تفضل معي... وخرج مع رفيقه إلى الطريق، وهو يزداد يقيناً أن هذا الجو الإرهابي المشحون يمهد بالضرورة لعمل مشين . ولم يمض سوى يومين حتى كانت مدافع عبد السلام عارف مصوبة إلى صدر الحزب بكامله.
في 19 نوفمبر- تشرين الثاني كانت سرية من كتيبة الدبابات الأولى المعروفة باسم "14 رمضان" تتمركز القاطع الذي يفصل بين القصر الجمهوري ومقر الإ ذاعة، وكان من بين ضباط هذه الكتيبة "عدنان خير الله" ابن الحاج خير الله طلفاح، خاله، ووالد زوجته، وكان عدنان أخاً آخر لصدام تربيا معاً في نفس البيت، وعاشا معاً أكثر سنوات عمرهما في تكريت أو بغداد ، وكثيراً ما كان صدام يزوره في مقر الكتيبة قبل الانقلاب . وهناك تعرف على عدد كبير من زملائه الضباط، فما كان منه إلا أن توجه إليهم حيث كانوا يحرسون الطريق المهم بين الموقعين المؤثرين، غداة الانقلاب، شرح لهم الموقف بصراحة: ليست هذه حركة تصحيح كما يزعمون، التصحيح يقوم به الحزب نفسه، وبغض النظر عن أخطاء القيادة، فإن الحزب ينبغي أن يواصل مسيرته ويصحح أخطاءه من داخله ، هذه بوضوح مؤامرة على الحزب. قالوا جميعاً باقتناع: إننا حاضرون، فقط نريد موقفا حاسما ، ولم يكن هو في موقع قيادي يسمح له بحسم الموقف.
في اليوم التالي تمكن من لقاء "أبي هيثم": "الرفيق أحمد حسن البكر " وشرح له مشاعر الضباط واستعدادهم لحماية الحزب وضرب المؤامرة، وبعدها تمكن من لقاء "حردان التكريتي" وقال له كلمات قاطعة: لقد استخدموك اليوم، وغداً سوف ينتهي دورك، أراد أن يفصل بينه وبين عبد السلام عارف وطاهر يحي ورشيد مصلح ، واقتنع حردان بعد ساعتين من النقاش، ومضى إلى مؤتمر للضباط عقد في مديرية الاستخبارات العسكرية، ودخل مع عبد السلام عارف في مشادة كلامية، حردان يقول: هذه حركة تصحيح داخل الحزب، وحزب البعث باق، وعبد السلام عارف يرد عليه:

هذه "ثورة" قومية وحزب البعث انتهى . بعدها بدأ صدام يوجه حردان توجيه اً مباشراً– منسقا في ذلك مع أبي هيثم – نحو العمل على حشد الحزبيين لاستعادة شرعية الحزب، غير أن الأحداث كانت أسرع، تقرر نقل كتيبة الدبابات الأولى إلى البصرة، وفقدوا القوة التي يمكن أن تساند الأمل في القيام بأي شيء.

غير أن الأمل في قلوب الثوار الحقيقيين لا ينطفىء أبداً، على العكس أوقد التحدي الجذوة في قلب صدام حسين، فمضى وسط الظلمة يتحسس طريقه كي يجسد الأمل من جديد، فاتح عدداً من رفاقه الذين يعرفهم، في التجمع والتماسك وإعادة بناء الحزب مرة أخرى، كان بينهم فاتك الصافي، وعبد الله سلوم، وحاتم العزاوي، وتهيأت له مجموعة من خمسة عشر رفيقاً، وبدا وشيكاً حلول موعد انعقاد المؤتمر القومي السابع في دمشق . وقرر أن يذهب مختفياً لحضور المؤتمر، متسللا من الحدود العراقية– السورية، وستبدأ من هذه اللحظة مرحلة الاختفاء الجديد في حياته، ولكن هذه المرة داخل حدود الوطن نفسه.

في دمشق التقى بمؤسس الحزب : ميشيل عفلق، حدثه عن ظروف العراق، وما جرى للحزب في العراق ، وكان هناك علي صالح السعدي أيضاً، وبدا أن المؤتمر سوف يضيع وسط مناقشات عقيمة بين وجهات نظر متعارضة بل متناقضة، وأغلب الظن أنه لن يستطيع الوصول إلى قرار يحمي استمرار الحزب في القطر العراقي ، واقترح صدام– وهذه هي صورة الوضع– ألا يحضر العراقيون المؤتمر بكافة أجنحتهم، بدون استثناء ، وقبل ميشيل عفلق وجهة نظره بعد أن اقتنع بها.

وعاد صدام حسين والتقى بالرفيق المؤسس مرة أخرى وقال له : سأدخل العراق مرة ثانية ، وسأواصل عملي، وسآخذ معي وسائل الطباعة الضرورية للكفاح السري، وسأسعى لتشكيل "نواة قيادية" مؤقتة حتى تقرر القيادة القومية أمرها في صورة القيادة التي تراها لتوجيه العمل داخل العراق ، واقترح "ألا أكون أنا واحدا من أعضائها ، فالذين انشقوا على الحزب يركزون كل هجومهم علي، ولست أريد أن نخسر حتى ولا نصير اً واحداً من أجل صدام حسين، غير إنني سأكون دائماً رهن إشارة هذه القيادة بكل جهد أستطيع للقيام به".

وتسلل مرة أخرى عائداً إلى بغداد، وبدأ يقيم جسورا سرية مع "أبي هيثم"، ويسعى بحماس لإعادة تشكيل أجهزة الحزب، وعندما وجد قرار القيادة القومية قد تأخر في الوصول، أصدر بياناً باسم (القيادة القطرية المؤقتة) أعلن فيه فصل "علي صالح السعدي" و"حازم جواد"، وحدد اتجاه العمل للمرحلة القادمة، وبدا سريعا أن مد الانشقاق ينحسر، وأن الموجات المؤيدة للشرعية الحزبية، والمساندة للقيادة القومية، تتصاعد شيئاً فشيئاً بإيقاعات حثيثة. وبعدها جاء قرار القيادة القومية بتعيين قيادة قطرية جديدة تتشكل من : عبد الكريم الشيخلي– أميناً للسر– وتضم عضويتها: صدام حسين، أحمد حسن البكر، محمد صبري الحديثي، حسن العامري.

وبدأت شرعية القيادة تتخذ كامل أهابها ، كان عبد الكريم الشيخلي أيامها معاون الملحق العسكري بالسفارة العراقية في لبنان، وعندما وقع انقلاب عارف ترك منصبه، وذهب إلى سوريا، ومنها ت سلل إلى العراق، واتخذ موقعه في القيادة الجديدة للحزب.

وتوزعت بين أعضاء القيادة الجديدة مسؤوليات كل عضو ، كان الشيخلي أميناً للسر، ولم يحمل مسؤولية أخرى، وكانت الرقابة مشددة على "أبي هيثم" رئيس الوزراء السابق بحيث حاصرت حركته إلى حد بعيد. وتولى محمد صبري الحديثي مسؤولية مكاتب العمال ونشاطات الاتصال الخارجي، وتسلم حسن العامري مسؤولية فرع بغداد ، أما صدام حسين فلقد وضعت على عاتقه مسؤوليات: المكتب الفلاحي، والمكتب العسكري المركزي، وفرع بغداد العسكري، ومكتب الاتصال الخارجي مع التنظيمات العسكرية خارج بغداد ، بمعنى أخر كل التنظيمات العسكرية في فقراتها الأساسية بالإضافة إلى مكتب الفلاحين، وشكل بعد ذلك مكتباً لضباط الاحتياط من رفاق وأنصار الحزب.

وبدأ العمل، انتشرت مرة أخرى بيانات ومنشورات القيادة القطرية، وأعيد طبع بيانات القيادة القومية ثانية في بغداد، ومن الدعم المالي الذي كانت تقدمه لهم القيادة القومية، ومن إمكاناتهم المالية الذاتية داخل القطر، أخذوا يشترون قطع

السلاح، واتخذوا لهم "مركزين": أحدهما لخزن السلاح في بيت "حسين محمود"، والآخر لأغراض الاختفاء في بيت "عبد الله خليل"، وكذلك بيت "طلال الفيصل" و"نديم الياسين".
وعاد الأمل في القيام بعمل ثوري ضد نظام عبد السلام عارف، يداعبهم من جديد مع النمو المطرد في قوة التنظيم، واجتمعت القيادة لتدرس خطتها، وتقدر الموقف تقديراً كاملا.
كان السلاح الذي يملكونه ما زال قليلا ، فطلبوا السلاح من القيادة القومية ، وأخذوا يصنعون قنابل يدوية محلية من مادة الـ "ت. أن. ت" وكان صدام حسين وعبد الكريم الشيخلي يصنعانها بأيديهما بعد أن يجمع مادتها رفيق لهما اسمه "غالب محمود" من صيادي السمك- وهو زوج شقيقة صدام حسين- ويشاركهما في هذه الفعالية صبي صغير اسمه برزان وهو شقيق صدام من أمه.
وكانت الخطة تقتضي الهجوم على القصر الجمهوري، والسيطرة على وحدات الحرس من الداخل، وقيادتها لتطويق القصر نفسه، وكان في الحرس الجمهوري رفاق لهم ، وتوجه صدام مع رفيق له اسمه عبد الكريم مصطفى نصرت وفاتحا أحد الرفاق الضباط في كتيبة الدبابات بالحرس، فوافق. وكانت مهمته تتركز في تسهيل دخول الفرقة الصدامية إلى داخل الحرس، والباقي عليها . وتحددت ساعة صفر للعملية، كانت تفترض وصول شحنة السلاح من سوريا قبلها، أي قبل الخامس من سبتمبر- أيلول 1964.
ولكن فجأة اكتشفت الخطة، ووقع هجوم صاعق على أعضاء الحزب أنفسهم، في الرابع من أيلول- سبتمبر أي قبل الموعد المقرر بيوم واحد. وتأخرت شحنة السلاح فلم تصل إلا في السادس من الشهر نفسه، وكشف أمرها. وجن جنون السلطة، فلقد أدركت أن الحرس الجمهوري نفسه بات مخترقاً، وبدأت حملة مسعورة لإلقاء القبض على القيادة التي اعترف عليها بعض الذين قبض عليهم ووقعوا تحت طائلة التعذيب الوحشي ، وشل التنظيم الحزبي من أثر الضربة المفاجئة، وبات عليه أن يبدأ من جديد.
في إحدى الأمسيات جلس صدام حسين مع عبد الكريم الشيخلي يتدارسان الوضع، ويحسبان حساباتهما مرة أخرى، وإذا بالساعة تبلغ الواحدة بعد منتصف الليل، فنهض صدام يريد أن يذهب، إلى أين؟ قال: لكي أبيت في الوكر الذي نخفي فيه السلاح، قال له عبد الكريم: إن دوريات الشرطة نشطة في هذه الأيام ومن الأفضل أن تقضي بقية الليل عندي، وفي تلك الليلة هوجم بالفعل وكر السلاح وأنقذ صدام بالمصادفة . (لكن لا صدام ولا كريم كان يعرف أن وكر السلاح المركزي قد داهمته السلطة).
في اليوم الثاني ذهب إلى "وكر" السلاح نفسه، وكان وكراً رئيسياً، فيه مركز طباعة، ومركز اختفاء لعبد الكريم الشيخلي، وفي صحبته بالسيارة كان الشيخلي نفسه وطلال الفيصل . هبط من السيارة، وذهب ناحية باب البيت ودق الجرس، وإذا به فجأة يجد مدفعا رشاشاً مصوباً نحو خاصرته، ومن خلف الباب صوت يصرخ فيه : قف، لا تتحرك. إذن فقد وقع الصيد الثمين فريسة سهلة في أيدي أعدائه، غير أن صدام الذي يملك أعصاباً قوية، وباردة إلى حد لا يصدق، وضع قناعاً ثلجياً على وجهه وسأله وكأن شيئاً لم يحدث: أليس هذا بيت محمد؟، صرخ الصوت من الداخل مرة أخرى: أقول لك لا تتحدث، إرفع يدك، وبنفس الأعصاب القوية والصوت المحايد أجابه صدام : أخي، ما هي قصتكم؟ رشاشات؟ ما هذا؟ ألا توجد حكومة؟ هل سابت الدنيا؟. وفي نفس الوقت كان يمد يده بسرعة الى المسدس- الذي يحمله، وما أن وضع يده على الزناد حتى صرخ في الشرطي وهو يسحب طلقة من مسدسه : إرم الرشاشة يا كلب. فوجئ الشرطي وقفز من مكانه، بيد أن الرصاصة لم تنطلق، سحب الثانية ولم تنطلق، فلما أدرك الجندي أن مسدسه لا يعمل، يخونه، عاد إليه وقد تيقن إنه فاز به، غير أنه من فرط مفاجأته الأولى لم يسحب عليه رشاشه ، بل بدا مرتبكا بعض الشيء، فأخذ صدام يتراجع إلى الخلف نحو السيارة التي كان يجلس بها كريم وطلال ، وما أن شاهداه في هذا الوضع حتى تحركت السيارة بعيداً عن البيت من فرط مفاجأتهم ومن ثم هبط من السيارة طلال وكان يحمل غدارة نسي أن يضع فيها مخزن عتادها، سحب صدام طلقة ثالثة ووجهها إلى الشرطي الذي يلاحقه ولكنها مرة ثالثة لم تنطلق، فأخذ

يركض وبيده المسدس حتى ابتعد قليلا عن الشرطي، وسحب طلقة رابعة، ولكنه بدلا من أن يوجهها إليه، قرر ألا يصيبه وقد ابتعد خطره، فأطلقها فوق رأسه، فإذا بالشرطي يركض إلى الخلف متوجه اً نحو البيت، لائذاً بحياته، وركب "صدام" السيارة ومضت به مع رفيقيه.

وخيمت على سماوات العراق أيامها سحابات داكنة ثقيلة من الإ رهاب الأسود، اعتقل أعضاء القيادة الواحد بعد الآخر : "أبو هيثم"، عبد الكريم الشيخلي، حسن العامري، ومعهم معظم كوادر الحزب المتقدمة، وأعداد ضخمة من الأعضاء والأنصار، وبات العبء فادحاً على أكتاف صدام حسين، ولكنه لم يفقد قط حماسه ولا جرأته الخارقة ولا ... أمله، كان يبدأ حركته ساعة الفجر، ويخرج إلى الطريق مع العمال الذين يتوجهون إلى مصانعهم ومعاملهم، إلى ما قبل الثامنة صباحاً، وفي الليل عندما تهبط الظلمة وتلف المدينة، كان يخرج لأ داء واجبه حتى ما قبل منتصف الليل . في تلك الساعات تكون وط أة دوريات الأمن أخف، وإمكانات الحركة السريعة أكبر . وكان قد برع على كل حال في تغيير هيئته، والتنكر الحاذق، حتى إن بعض رفاقه ما كانوا يعرفونه إلا بعد أن يبدأ في المباسطة معهم. وكان يشتري سيارات قديمة "خردة" ويبدل أرقامها، ويستخدمها، ثم يبدلها،

وذات يوم، وهو يعبر جسر الجمهورية في طريقه نحو الباب الشرقي في بغداد،

في سيارة "زودياك"، إذا به يجد أمامه سيارة شرطة بداخلها ضابط برتبة "مقدم"، ويتطلع إليه بانتباه وتركيز ويتحدث في جهاز اللاسلكي بسيارته ويشير على سيارته ، وعلى الفور استيقظت في نفسه كل غرائز اليقظة والحذر والدفاع عن الحياة، وكان يحمل في سيارته على الدوام رشاشا وقنبلتين يدويتين فضلا عن مسدسه الذي لا يفارقه . قال لرفيقه غالب محمود الذي كان يصحبه : انتبه، هيء الرشاش، وافتح زجاج النافذة قليلا، ولكن لا تطلق حتى أقول لك ... وتقدمت سيارته وتقدمت معها، محاذية لها تماما، سيارة الشرطة، وعندما بلغتا نقطة عبور المشاة، إذا بالضابط داخل السيارة ينادي على شرطي المرور ويطلب إليه أن يوقف سيارة صدام، ولكن الشرطي اقترب من الضابط، وانشغل في أداء التحية العسكرية له، وفي لمح البصر انفلتت سيارة صدام ومضت مسرعة، وغابت وسط الزحام، بينما كان الشرطي يتلقى سباب ضابطه لأنه لم يفهم. في اليوم التالي، كان يجتاز ساحة "14 رمضان" في بغداد، في سيارة "فولكس فاغن"، وتزاحمت سيارة أحد العابرين مع سيارته، فإذا بقائدها يسحب مسدسه عليه، فاضطر صدام أن يسحب مسدسه هو أيضاً، قال: هذا واحد آخر عرفني، وأغلق زجاج سيارته، وظل جالسا خلف المقود ، فإذا الرجل يوقف سيارته ويهبط منها حاملا بيده مسدسه متجه اً نحوه بخطى ثابتة، صرخ فيه صدام على الفور : لا تتقدم وإلا قتلتك، ماذا تريد يا رجل؟ أبعدني عن شرك، ولكن الرجل المسكين لم يكن يعرف طبيعة الموقف الذي يضع نفسه فيه، قال له في سذاجة ممجوجة في تلك اللحظة: أنت زاحمتني، قال له صدام: يابا اذهب لم أزاحمك، رد عليه الرجل: ارمي مسدسك، أمجنون هذا؟ قال له صدام: إذا خطوت خطوة واحدة إلى الأمام سأطلق النار، وخطى الرجل خطوة، فإذا بصدام – الهداف الممتاز– يطلق طلقته من فوق رأسه تمام اً حتى يخيفه دون أن يقتله ، سقط الرجل على الأرض ثم نهض مسرع اً وجرى إلى سيارته، ومضى إلى سبيله ، واشتد توتر الموقف، وزادت قوات الأمن من هجماتها على كل بيت تظنه فيه ، وبالمقابل راح هو يغير أوكاره وأساليبه، بهدوء أعصاب، وثقة، وأمل لا يخمد، وفي تلك اللحظة جاءته رسالة من القيادة القومية تطلب منه أن يغادر العراق، ويتجه نحو دمشق، حتى لا يقع في أيدي شرطة النظام ويدخل السجن– هذا قرار.

نظر صدام حسين إلى مندوب القيادة القومية وقال له : "يا رفيق، أنا في كل حياتي ملتزم ، ولكن هذا القرار وحده لن ألتزم به، لن أنفذه، إن الالتزام به سوف يؤذي أعضاء الحزب المتبقين ويحط من روحهم المعنوية، في وقت هم أحوج فيه إلى من يشد أزرهم، ويساندهم، وينفخ في أعماقهم جذوة الأمل. يا رفيق. هذا ردي، وتحياتي للقيادة القومية".

غير أن القيادة القومية، وقد واجهها بهذا العناد الصلب، اقترحت عليه أن يقوم بتسجيل كلمة بصوته تذاع من راديو دمشق وكأنه هو الذي يذيعها. وأعجبته الفكرة، ولكنه بدلا من أن يقول في تسجيله إنه في دمشق، قال بل أنا في بغداد . وأذيع التسجيل من راديو دمشق، لكي يسمعه ال معتقلون البعثيون ويعاونهم في رفع معنوياتهم في محنتهم القاسية في

غياهب السجن والمعتقلات . اشتد الحصار ، واندفعت قوات الأمن بشكل محموم للبحث عنه ، قلبت المدينة رأساً على عقب، فتشت كل ركن، قلبت كل حجر لترى ما تحته، وضعت في أركان الشوارع والساحات عرباتها المسلحة المزودة باللاسلكي، شكت في كل شخص ، استجوبت مئات وآلاف الناس، وأغرتهم وأرهبتهم ، وسقط في النهاية واحد لم يصمد أمام التعذيب الوحشي. واعترف. إن صدام حسين في بيت "طارق جهاد"، وإذا به يجد نفسه فجأة مطوقاً من كل جانب.
هل جاءت اللحظة أخير اً التي يسقط فيها الفارس في حبائل العدو؟ هل انتهى كل شيء ولا بد من أن يرفع يديه حتى توضع فيها السلاسل ويقيد من الخلف؟
ومع ذلك لا بد من المقاومة ، ولكن هل تجدي المقاومة؟ أراد اختبار القوة التي تطوقه فأطلق عدد اً من طلقات مسدسه، فإذا بسيل من الرشاشات يجاوبه، من كل ركن ، لا.. لا معنى للمقاومة المستحيلة هذه المرة، والتي لن ينجم عنها إلا ضحايا قد تكون بريئة من الشرطة بالإ ضافة إلى ما سيتحمله أصحاب الدار الذين يأوونه من عقاب عندما تسيل الدماء على أبواب دارهم أو في فنائه . لا مفر... وبصوت مدو مجلجل هتف بسقوط عبد السلام عارف، وبحياة حزب البعث العربي الاشتراكي. وسلم.
عندما صعدت القوة العسكرية إلى الطابق الأعلى، حيث كان يقف، بدأ بعض ضباطها يكشفون عن وضاعتهم وانحطاط خلقهم، بتوجيه عبارات مهينة إلى صبية كان عمرها خمسة عشر عاماً، وأمها، هما أخت وأم رفيقه طارق جهاد، فإذا به ينتفض كمن مسه مس وسحب قنبلة يدوية كانت موضوعة في كيس من الورق فوق الطاولة المجاورة دون أن يلتفت إليها أحد وصرخ بالضابط : إذا تكررت هذه العبارات الوقحة، أنظروا هذه القنبلة، سأقتلكم وأقتل نفسي، فانتبه قائد الحملة إلى خطورة الموقف فأمر الضابط بالكف عن بذاءاته.
دخل إلى غرفته، وارتدى ملابسه، وسحب "خرطوشتين " من سجائر "الروثمان " كانتا لديه، وأعطاهما للشرطة ، قالوا في ادعاء التمنع: لا.. هذه سوف تفيدك، قال لهم: لا. لقد انتهى التدخين بالنسبة لي.

10 – حتى نتحطم كل القضبان

في مبنى الأمن العام ، كان رشيد محسن– المدير العام– يسير في غرفته جيئة وذ هاباً وهو يصفق بيديه طرباً، فها قد وقعت الفريسة أخيراً في الشباك.
عندما دخل عليه غرفته، حاول أن يطامن فرحه، ويصطنع الهدوء وقليلا من اللامبالاة ، ونظر إليه بعينين تتبدى فيهما الشماتة وقال له:
– صدام، لماذا أعطيت سجائرك للجنود.
– حتى لا تدفعوا لي بسيجارة من تحت الباب.
– آه، والآن يا صدام، كل شيء قد انتهى الآن، الإخوان في القيادة تحدثوا إلي بكل صراحة عن كل شيء، لا أعتقد أننا محتاجون لسماع كلامك، ومع ذلك، من الضروري– يا صدام أن تشرح لي:– هذه الأمور كيف صارت؟
– وما دمتم تعرفون يا رشيد كل شيء فماذا يفيدكم كلامي؟ إسمع، سوف أحكي لك قصة لا تأبه بها أنت الآن، وقد تظن أنها ليست قابلة للتنفيذ ، ولكنك ستدرك فيما بعد ما أقصده منها، إنها قصة سمعتها وأنا صغير، ولم تغب عن بالي قط. هه، هل تسمعني؟ انتبه، يحكى أن أحدهم في زمن الحكم العثماني اتهم بحادث قتل أحد الأشخاص المقربين من الحكم، فقبضوا عليه وساقوه إلى التحقيق ، واستخدموا معه كل وسائل التعذيب التي كانت معروفة لديهم إلى حد أنهم كانوا يسلخون من جلده ويقلعون أظافره ، وظلوا يفعلون معه هكذا سنة كاملة ، وعجزوا عن أن يستنطقوه بكلمة ، فقادوه إلى المحاكمة، فأفرجت عنه المحكمة، وكان ذلك الرجل من الموصل، وعندما خرج من السجن، توجه إلى الحمامات العامة في الموصل كي يستحم، فإذا برجل آخر يغتسل في الحمام يقول له : "عمي تريد جيلاني؟" (وهو نوع من الطين الأحمر كان يستخدم بدلا من الصابون) أجابه الرجل: يابا فضلك، وأخذ من الرجل قطعة منه، ولكن الرجل عاد فقال له: "عمي،

أتريدني أن أساعدك وأغسل لك ظهرك؟ " فأجابه: يابا فضلك، فغسل له ظهره، وبينما هو يفعل قال له: عمي، هذا ماذا يكون؟

لماذا هكذا ظهرك؟ (فلقد كانت آثار التعذيب واضحة عليه) أه.. هل أنت "فلان"؟ أليس كذلك؟ رد عليه الرجل قائلا: نعم. فسأله مرة أخرى: ألا تحكي لي كيف قتلت ذلك الرجل؟ فالتفت إليه السجين السابق وصفعه.

وهنا صاح فيه الذين كانوا يستحمون بجانبه : أي إنسان أنت؟ هذا الرجل يساعدك وتضربه؟ فنظر إليهم الرجل وقال : أنتم لم تسمعوا القصة، لماذا ضربته؟ إن هذا الرجل يريد أن يعرف مني ما لم تستطع الحكومة أن تعرفه بعد أن عذبتني سنة كاملة.

والآن؟ هل فهمت؟ إنني أحكي لك هذه القصة يا رشيد، وبعدها حاولوا، وافعلوا ما بوسعكم أن تحاولوه أو تفعلوه ، ولكن إذ تستخدمون مثل هذه الأساليب معي، سوف تسألونني بعدها ما هو اسمك؟ لن تعرفوه؟ حتى اسمي لن أقوله لكم.

– لا. لا. لا بد إنك سمعت قصصاً مبالغاً فيها، نحن لسنا هكذا أبدا، الإ خوان في القيادة اعترفوا بدون أي ضغط أو إكراه، ستشاهد أنت بنفسك كريم الشيخلي ويحدثك كيف جرت الأمور بشكل اعتيادي.

كان كريم الشيخلي قد تعرض لو طأة تعذيب قاسي، فضعف في التحقيق . فتصوروا أنه إذا تحدث مع صدا م فإنه سوف يقنعه بتجنب الصمود معهم والتعرض للتعذيب ، بل وحتى كريم نفسه تصور أنه يمكنه أن يجنب رفيقه قساوة التعذيب ويقنعه بعدم التشدد معهم، وبالفعل رتبوا لقاء بينهما. غير أن "صدام" كان يريد أن يلتقي بكريم أيضاً لسبب آخر، هو أن يعرف منه طبيعة ما جرى، وحدود تصورات الرفاق داخل السجن، ويرفع من روحه المعنوية التي استطاعوا تطويقها في التحقيق.

وبعد أن تمت المقابلة اقتيد صدام مرة أخرى إلى غرفة رشيد محسن مدير الأمن العام:

– ها... صدام..

– والله أنا لا زلت عند كلامي الذي قلته لك في المرة السابقة، هل ما زلت تذكر القصة التي حكيتها لك؟..

– صدام.. أنظر، إن طاهر يحي يريد رؤيتك..

– طاهر يحي، طاهر يحي رئيس وزراء، أنتم تستطيعون بالطبع أن تقودونني قسرا ً إليه، يعني تضعون الحديد في يدي وتأخذونني إلى مكتبه. أما أنا فأقول لك إنني لا أريد أن أرى وجه طاهر يحي مطلق اً، وأعتبر كل هؤ لاء خونة، طاهر يحي... عبد السلام عارف... أنظر، أنا في لحظة من حياتي حملت غدارتي وأطلقت نيرانها على عبد الكريم قاسم وضربته في شارع الرشيد، ولم يكن عندي حقد عليه، أنا لم أحقد في حياتي على إنسان، ولكن قل لعبد السلام عارف إنني أحقد عليه حتى العظم، إن ذلك الإنسان الذي يهشم الجماجم التي رفعته، هو إنسان بلا خلق ولا قيم.

– على هواك يا صدام..

وانقطع الحوار بينهما. وقاده الشرطة إلى أسفل مبنى الأمن العام حيث وضعوه في زنزانة انفرادية، على مقعد صغير، وقد قيدوا يديه من الخلف بسلسلة من الحديد، وربطوا طرفها في قضبان النا فذة العالية، سبعة أيام كاملة. سبعة أيام كاملة، على هذا الحال، ولم ينطق بحرف، فوجدوا أن لا فائدة من الاستمرار، فقادوه إلى سجن التاجي، حيث بدأ التحقيق العادي.

كان في التحقيق يكسب المحققين إلى صفه ، عندما سأله المحقق عبد القادر الجنابي: هل كنتم تعدون للقيام بثورة؟ لم ينكر، قال: نعم، ولكن مسؤولية ذلك تقع علي وحدي، إن "أحمد حسن البكر"، لا علاقة له بشيء ، بل نحن كنا نعتبره صديقا لعبد السلام عارف، ولذلك لم نك ن نأتمنه أو نحيطه بأي سر. وإذا كنتم قد سمعتم خلافا لذلك، فلقد أخط أتم بالتأكيد... كان يريد- متجاوزا- أن يبعد أية شبهة عن ذلك الرجل الذي أحبه وقدره وأراد أن يحمل عنه أية تهمة توجه له، كل الأمور الخطرة وضعها على كاهله وحده، وحمل عبئها وحده..

إن السجن بوتقة الرجال ، تتكشف معادنهم الثمينة أو الرديئة خلف قضبانه وأبوابه المغلقة ، ومن النادر أن يدخل إلى السجن مناضل، دون أن يؤكد- إذا كان من معدن الذهب فضائله، بل لعل صلابته ولمعانه يتبديان أكثر من ذي قبل وهو وحيد وسط الحصار..

وعندما دخل صدام حسين إلى السجن، بدا وكأنه يعزفه ، وكأنه لا يلتقي بالجدران الرمادية المتجهمة، وقضبانها السوداء الكئيبة، وطاقاتها الصغيرة العالية، على مضض، تفتقت فيه غرائز "الأبوة" ولم يكن أكبر الرفاق سناً ، بل على العكس كان من أكثرهم صباً وفتوة. وأخذ يفكر في الجميع، ويعامل الجميع، وكأنه الأب الذي يحنو، والذي يوجه، والذي يؤنب، والذي يربي أبناءه في ا لنهاية..

وحينما أغلق عليه باب الزنزانة لأول مرة، واصطكت المتاريس الثقيلة بصوت ثقيل، كئيب، اخترق أذنيه، داخله شعور غريب، مبهم، أشبه بالحدس الباطني، بأنه لن يموت ، لم يرد بخلده للحظة أنه سوف يموت . فكرة الموت لم تحوم أبدا بأجنحتها السوداء على روحه ، وحتى عندما كان يخطر بباله احتمال الحكم بالإ عدام عليه، كان يقول في نفسه على الفور: إذا لم يعدمونني بسرعة فإنني سوف أهرب.

غير أن الرفاق بالخارج حينما أرسلوا إليه، بعدها، يقولون أن ثمة فرصة لتهريبه و إنهم سوف يساعدونه على الهرب، رفض، أجابهم قائلا: إنني لو هربت لن يخرج من رفاق السجن ولا واحد، ولا بد من أن تصبروا علي قليلا . إن الخطة – ودائماً هناك لديه خطة– تتركز على تهريب المكتب العسكري، مكتب بغداد العسكري..

وفعلاً أعدت الخطة وهرب أعضاء مكتب بغداد العسكري .. وعندما تم الهروب، تقرر نقل السجناء جميعاً الذين تبقوا– وكان قد أفرج عن عدد منهم– إلى سجن رقم (1).

كان قد تبقى سبعون سجيناً، وكعادة السجناء السياسيين في كل سجون العالم، بدأوا إضراباً عن الطعام لتحسين أحوالهم، وللمطالبة بالصحف والكتب والزيارات، واستجاب النظام المتهاوي الذي كان يتفسخ من داخله لمعظم مطالبهم . وبدأت ساعات النهار الطويلة، وراء القضبان، تقصر شيئاً فشيئاً عبر رحلات الفكر في "روائع الأدب العالمي". كل نهار كان يبدأ برواية وينتهي بنهايتها، ما أكثر ما قرأ صدام في تلك النهارات الطويلة من كتب الأدب والفكر والفن..

ولكن فكرة الهروب كانت ما تزال تخايله . لقد تولى إعادة بناء التنظيم داخل السجن على الفور . وراح يقوي معنويات من ضعف، ويمسح جروح من نزف ، ويسعى لأن يجعل من الصف الواقف أمام ممثل السلطة، مدير السجن "علي الأشق" سوراً من الصخر الغرانيتي. وأصدرت القيادة داخل السجن– وكان هو مسؤولها– قراراً بأن لا يستجيب الرفاق لأسئلة علي الأشقر اللزجة عندما يقول لهم من عنده منكم مشكلة؟ إنه الأسلوب المتشابه في كل سجون العالم : محاولات الترويض النفسي، ثم الإيقاع بالفرائس السهلة، وبعدها الطريق المنحدر دائماً إلى هاوية الاستزلام للسلطة..

فجأة وجد مدير السجن أمامه رجلاً واحدا، يتحدث بصوت واحد . قال له صدام حسين، السجين صدام حسين في سجن رقم (1): يا علي الأشقر نحن هنا حزب أيضاً. لدينا تنظيمنا وتقاليدنا وأوامرنا وطاعتنا ، لن يجيبك أحد بعد الآن من هؤلاء الرفاق عندما تسأل، فلا تتعب نفسك، وامض ، يومها مضى علي الأشقر وقد أحس أن ثمة شيئاً غريباً قد جرى لهؤلاء السجناء..

ثم قرر أن يبدأ في وضع خطة الهروب موضع التنفيذ. كانوا قد استطاعوا إن يكسبوا جنود الحراسة لصفهم، بحيث أنهم كانوا يسمحون لهم بفتح الأبواب الداخلية– أي أبواب الزنازين– طيلة الليل، وكان الرفاق يجتمعون بالتالي، ويتناقشون، ويتدبرون أمرهم.

وأرسل إلى الرفاق بالخارج كي يحضروا له، "مناشير" لقص القضبان الحديدية مع النساء القادمات للزيارة ، وبالفعل وصلت المناشير مع سيدة تدعى (أم محمد إسماعيل)، أخت الرفيق الراحل "حماد شهاب"، وبعدها، راحت القضبان تتهاوى.

كان قص القضبان يتم بعد أن يرفعوا صوت "الراديو"، خصوصاً في الأيام التي يعلو فيها صوت الريح، ويهطل المطر. وكان ذلك يجري في سرية، حتى على بعض الرفاق، وعندما كانوا ينتهون من انتزاع قسم من القضبان كانوا يتركونها مصلبة حتى يتم انتزاع الباقي. وكانت الخطة تقتضي بعد الانتهاء من القص أن يهجم على الحارس الواقف بجانب النافذة إثنان من الرفاق الأقوياء، وينتزعون منه بندقيته، ثم يسحبونه إلى الداخل، وبعد ذلك يقوم الباقون- واحداً وراء الآخر- بعبور الباحة، ثم يقفزون فوق سطح المعتقل الثاني- أو العنبر الثاني- وينزلون من الجهة الأخرى. وهناك يأخذون معهم فراش النوم ويلقون بها على الأسلاك الشائكة، ثم يبدأون بالقفز من فوقها. وتقرر أن يكون تسلسل العبور حسب التسلسل الحزبي: القيادة في البداية ثم أعضاء الجهاز الخاص ثم الضباط.. وهكذا.

وكاد كل شيء أن يتم حسب الخطة الموضوعة، لولا أن موجة من العفو بدأت تشمل الضباط المعتقلين، من جراء اشتداد الحملة في الخارج للإفراج عن المعتقلين، ومشاعر التذمر والسخط التي راحت تتزايد وسط قواعد الجيش. وقرروا التوقف عن تنفيذ الخطة حتى يتم الإفراج عن بقية الضباط ومن سوف يشملهم العفو، حتى لم يبق من السبعين معتقلا سوى سبعة. وتقرر نقلهم إلى عنبر آخر، وبات واضحاً أن خطتهم لم تعد قابلة للتنفيذ.

غير أنهم قرروا البدء في وضع خطة جديدة، تقوم هذه المرة على إقناع الجنود المرافقين لهم في الذهاب إلى المحكمة، وفي الخارج الآن تنظيم بدأ يعاود نشاطه بقوة نسبياً، وهناك على الأقل رفاق يستطيعون تدبير أمر الهروب. ومن حسن الحظ أن المعتقلين كسبوا أيضاً حقوقاً أكثر في زيارة أقاربهم لهم، كل أسبوعين في أول الأمر، ثم كل أسبوع بعد ذلك.

ولم تكن "ساجدة" تأتي وحدها لزيارته، كان "عدي" يأتي معها أيضاً، لم يكن عمره قد تعدى بضعة شهور، ولكنه دون أن يدري كان يمارس في كل مرة يأتي لزيارة أبيه عملا نضاليا مجانياً. في الخارج كان "أبو هيثم" يضع في صدر الطفل الصغير رسالة إلى صدام، وعندما يحمل الأب طفله بين يديه، ويحتضنه، كان يسحب الرسالة من بين ملابسه بسرعة، ودون أن يلمحه أحد من الحراس، يضع مكانها رسالة أخرى في صدره: من "صدام" إلى "أبي هيثم"، وهكذا استمر التواصل بين الحزب في الخارج، والحزب في الداخل، عبر عدي الصغير الذي لم يكن يتكلم.

وعن طريق الرسائل المتبادلة، نظمت عملية الهروب الجديدة مع "سعدون شاكر" هذه المرة. أرسل له صدام يقول: استطعنا إقناع الجنود بعد عمليات غسيل دماغ شاقة ومستمرة، وسنضعهم ونحن في طريقنا إلى المحكمة أمام الأمر الواقع، وعليك أن تنتظرنا في المكان المحدد واليوم المحدد..

وفي ذلك اليوم كانوا في طريقهم إلى المحكمة: صدام حسين، وكريم الشيخلي، وحسن العامري. واستطاعوا إقناع الجنود بالذهاب إلى مطعم "الجندول" بشارع أبي نواس لتناول طعام الغداء. واتفقوا مع سعدون شاكر أن ينتظرهم بسيارته خارج الباب من جانب المغسل، وله باب عندما يفتح، يفضي رأساً إلى الشارع العام. وتكون السيارة مفتوحة الأبواب. فإذا حاول الجنود المقاومة في أخر لحظة، تنتزع منهم بالقوة رشاشاتهم، ويتم الهرب..

واتفق الثلاثة على أن يهرب في البداية إثنان منهم، والثالث يبقى مع الجنود- وكانا إثنين فقط- ويحاول إقناعهما بالاختفاء معاً، بعد أن يعدهما بالتكريم عندما تنجح الثورة، فإذا قبلا، فنعم، وإذا لم يقبلا فانه سيعود معهما إلى السجن، ووقع الاختيار على حسن آلعامري أن يكون الرفيق الثالث، وعندما فتح الباب الخلفي للمطعم، باب المغسل، كانت سيارة سعدون شاكر واقفة مفتوحة الأبواب، دخل فيها بسرعة صدام حسين، وكريم الشيخلي، ودار محركها على الفور، وانطلقت، أما ثالثهم "حسن العامري"، فلقد رفض حارسه فكرة الهروب بشدة، وأصر على العودة به إلى السجن مرة أخرى.

في شوارع بغداد المكتظة ساعة خروج العاملين من المصالح والدواوين، لم يلتفت المارة إلى سيارة "أوبل" صفراء ذات سطح أسود، يركبها ثلاثة شبان، إثنان منهما يطاردهما الحكم بالإعدام، وهي تقطع المسافات بسرعة هائلة، متوجهة صوب بيت منعزل في حي "اليرموك". وهناك تتوقف قليلا، ويهبط منها "كريم الشيخلي" ثم تتحرك ثانية بنفس السرعة

بعد أن رفض "صدام" أن يأوي إلى "الوكر" الجديد مع رفيقه، تحسباً من أن يكون مؤشراً من جانب الشرطة. وبعد قليل تتوقف، ليهبط منها الرجل الذي قرر أن يواجه مصيره وحده في هذه اللحظة.
والآن؟ ماذا عساه يفعل؟ إلى أين يتوجه؟ لا بد من البحث عن مكان آخر لا يعرفه أحد. وفجأة ومضت في عينيه صورة "ساجدة" و"عدي"، الصغير، ولكن أين تراهما الآن؟ في المرة الأخيرة التي زارته فيها من وراء القضبان سألها عن أحوالها، فصمتت، فلما ألح في السؤال، قالت له أن أصحاب البيت الذي كانت تستأجره لتقيم فيه مع طفلها، ألقوا بأثاث البيت في الطريق، بعد أن عرفوا بأمر القبض على زوجها، وقالوا لها نحن لا نريد أن تسكن في بيتنا عائلة مطار دة سياسياً خشية من السلطة. وظل الأثاث ملقى في الطريق طيلة اليوم، لا يسمحون لها بنقله أو ب إدخاله إلى البيت مرة أخرى. وفي النهاية حملت أغراضها ومضت تطرق بيت أبيها، هي وطفلها، لتقيم فيه حتى يعود الغائب من وراء الغياهب يوماً ما. لشد ما تعذبت هي أيضا، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يتوجه في هذه الساعة ليراها، وليرى طفله. حقاً إنه الآن، حر. ولكن حريته مطاردة، حريته عبء يحمله على كاهله وهو يقطع شوارع هذا السجن الكبير ، إنها حرية مؤجلة، مرتهنة، حتى تتحطم القضبان، وتتهدم كل الأسوار، ويسترد المجتمع كله حريته المغتصبة . إن حريته ليست منفصلة عن حرية المجتمع، حريته هي حرية الناس جميعاً.
أفاق من تأملاته فجأة وقد وجد نفسه بالقرب من بيت صديق قديم للحزب، ظل وفيا لصداقته ولم يرتبط بعضويته أبداً ، لعل بيته آمن في هذه الساعات الحرجة.
وطرق باب "فاروق عبد سعيد السامرائي"، في ساعة العصر، من يوم الثالث والعشرين من يوليو- تموز عام 1966، المناضل الذي حطم أغلاله الخاصة، ويستعد الآن لتحطيم أغلال المجتمع كله: صدام حسين.
ولسوف تبدأ من هذه الساعة ملحمة أخرى من ملا حم حياته، وسيخطو من الآن فصاعداً خطواته الثابتة لإعادة بناء التنظيم الحزبي، وتنقية الفكر الحزبي، بعد أن أوشكت العواصف العاتية، القادمة من دمشق هذه المرة، أن تهزه بعنف، وتقتلعه من جذوره.

11 - عندها اقتربت ساعة الفجر

في التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر ا لقطري الثامن لحزب البعث العربي الاشتراكي في العراق عام 1974 نقرأ هذه الفقرة:
"لكي نقدر تقديراً موضوعياً طبيعة وحجم حركة الحزب السياسية قبل تسلمه السلطة في 17 تموز (يوليو) 1968، وبعدها، لا بد من العودة إلى أوضاع الحزب في القطر العراقي والوطن العربي في الفت رة الواقعة بين 18 تشرين الثاني- نوفمبر 1963 و17 تموز- يوليو 1968.
"إن حزب البعث العربي الاشتراكي، وعلى الصعيدين القطري والقومي عانى بمرارة في المرحلة المشار إليها من مشكلة الانشقاق ومواجهة أثار فشل تجربة الحزب في قيادة السلطة السياسية في العراق وسوريا، بالإضافة إلى المهمات الدائمة... مهمات النضال ضد الاستعمار والصهيونية والقوى الرجعية والدكتاتورية والتعرض نتيجة ذلك إلى شتى صنوف الاضطهاد وفي كل أرجاء الوطن.
"ففي 18 تشرين الثاني 1963 سقطت تجربة الحزب في القطر العراقي التي كانت معقد آمال الحزب وجماهيره في القطر والوطن العربي، وكان سقوطها ذا طابع مأساوي أصاب الحزب وجماهيره بصدمات نفسية خطيرة، إضافة إلى الخسارة الجسيمة بفقدان مكتسبات الثورة والكثير من مناضلي الحزب الذين استشهدوا وهم يقاومون الردة ببسالة.
"وفي 23 شباط- فبراير 1966، وبعد سنتين وبضعة أشهر من النكسة الأولى التي حدثت في القطر العراقي أصيب الحزب بصدمة خطيرة ثانية عندما أقدمت الزمرة الشباطية في القطر السوري على تدبير انقلاب عسكري ضد سلطة الحزب الممثلة بالقيادة القومية ، وبردة 23 شباط- فبراير نشأ ولأول مرة، وضع استثنائي خاص بالغ الخطورة

والتعقيد، ذلك هو وضع السلطة المفروضة على الحزب بقوة السلاح وبأساليب المناورة والتضليل والتزييف والتي تدعي في الوقت نفسه بضجيج عال جداً وبنشاط واسع النطاق، تمثيلها للحزب، وتجسيدها لشعارات تطويره في الميادين التنظيمية والأيديولوجية والسياسية.

"وقد أعقب كلا من النكستين المذكورتين (18 تشرين و 33 شباط) انشقاق خطير امتد في الحزب كله عمودياً وأفقياً وأثار في صفوفه صراعات تنظيمية وفكرية حادة وحالات خطيرة من البلبلة. وكانت الآثار التنظيمية والسياسية والنفسية لهذين الانشقاقين على فرع الحزب في القطر العراقي ذات ثقل خاص، وبالغ الخطورة " (التقرير السياسي للمؤتمر القطري الثامن عام 1974، بغداد دار الثورة صفحة 19 – 20).

في هذا المناخ التنظيمي والسياسي والنفسي والأيديولوجي، تنفس صدام حسين أول نسمات الحرية بعد هروبه من السجن..

والغريب إنه عندما كان وراء أسوار السجن، توقع قيام حركة 23 شباط- فبراير 1966 في سوريا، بل إنه طلب حينذاك مندوباً من القيادة القطرية، فزاره "شفيق الكمالي" فقال له: سيقوم انقلاب على القيادة القومية، وسيقود الانقلاب "صلاح جديد" ومجموعته العسكرية ... وكان قوله ذاك استقراء ذكياً بناه على تحليلاته لما كانت تنشره الصحف البيروتية حينذاك، وعلى تقويمه لبعض "الأخطاء الفنية"- أو "الأغطية الفنية"- التي أعطتها القيادة القومية لهم بدون مبرر، في تدابيرها وإجراءاتها، التي اتخذتها، ومنها تشكيل الوزارة التي ترأسها أيامها صلاح البيطار ، فعندما تشكلت هذه الوزارة صار لديه يقين كامل بأن الانقلاب واقع لا محالة.

إن ما بدا أمامه واضحاً وضوح اليقين أن الحزب في العراق ممزق نفسياً وتنظيمياً وإنه يعيش "أزمة ارتجاج فكري حادة"، وإنه منقسم على نفسه في الداخل وإن كان الانقسام مغطى بنقاب شفاف من الوحدة الخارجية الظاهرية . وكانت الأغلبية، كما رآها، تقتفي آثار تيار 23 شباط- فبراير، على مستوى القيادة أو القاعدة . ولم تكن القيادة نفسها موحدة بحيث يمكنها أن توجه الأمور توجيهاً صائباً في الاتجاه المطلوب. كانت القيادة وقتها تسمى (لجنة قيادة التنظيم) وتضم في عضويتها: عبد الخالق السامرائي، وحسن الذهب، وحسين السامرائي، وسمير النجم، وجعفر قاسم حمودي . وكانت قد سبقتها قيادتان أخريان، إحداهما كان أمين سرها طارق عزيز وهي لم تدم سوى بضعة أسابيع، والأخرى كانت تضم: عبد الخالق السامرائي، وشفيق الكمالي، وفاتك الصافي، وشكري الحديثي.

وكان المفترض أن (لجنة قيادة التنظيم) تخضع لإشراف: أحمد حسن البكر، وصدام حسين بوصفهما عضوين في القيادة القومية. ولقد انتخب صدام عضواً في القيادة القومية وهو داخل السجن، وصلته ذات يوم رسالة من طارق عزيز- حين كان أميناً لسر القطر- يقول له فيها أنه رشح في القيادة القومية ، وأجاب على الرسالة يومها قائلاً له: "إن مسألة القيادة ليست مسألة هيبة أو أبهة ، أنا لا أفعل شيئاً من أجلكم الآن، كما يفعله رفيق طليق، أنا داخل السجن، وإذا لم يعدمونني فلن أخرج من السجن قبل مدة طويلة ، أنا لا أفيدكم في هذه الظروف ، اختاروا من يفيدكم في النشاط الفعلي ... ولكن اعتذاره لم يقبل وطرح الرفاق اسمه في المؤتمر، وفاز بعضوية القيادة القومية وهو وراء القضبان.

لم يكن أمامه، وهو يرى الوضع العام للحزب على هذه الصورة المتردية، إلا أن يعمل كعادته بهمة عالية، ودأب لا يهمد، وحماس لا يفتر قط . اجتمع على الفور مع عبد الخالق السامرائي، وكريم الشيخلي، و انتهوا إلى رأي مفاده ضرورة حل "لجنة قيادة التنظيم" وإعلان وجود "قيادة قطرية"، بدون الرجوع إلى القيادة القومية التي كانت في تلك الفترة "غائبة" أو "غير موجودة" بعد انقلاب 33 شباط. كانت المبادرة واجبة، وفضلا عن ضرورة المبادرة فإن اثنين من القيادة القومية موجودان داخل العراق يمكنهما أن يمثلا سلطتها، حتى تعود مرة أخرى بكاملها إلى الوجود الفعلي .

وكانت القيادة القطرية الجديدة تتشكل من الرفاق الثلاثة المجتمعين بالإضافة إلى أحمد حسن البكر الذي كان يتعذر عليه في كثير من الأحيان حضور الاجتماعات التنظيمية لشدة تركز المراقبة البوليسية عليه.

وبدأت القيادة الجديدة تواجه حملة واسعة النطاق من جانب أصحاب الانقلاب السوري لشق وحدة الحزب بعد أن بات متعذر عليهم الاستيلاء عليه بكامله . فطرحت القيادة على الفور ضرورة عقد مؤتمر قوم ي استثنائي تحضره كافة الأطراف المتنازعة، ويقول كلمته في تقويم تدابير القيادة القومية قبل 23 شباط، كما يقول كلمته أيضاً في انقلاب 23 شباط نفسه، ويحدد مصير كل طرف.

وكانت القيادة القطرية تعرف أن هذا "المنطق المبدئي" لن يقبله القابضون على زمام الأمور في سوريا ، ولكن النشرة الداخلية التي حملت على صفحاتها هذا الرأ ي استقطب الجانب الأعظم من الكادر الحزبي . ومع ذلك لم يلق السوريون بالا للأمر، وأخذوا يبعثون بمندوبيهم إلى العراق مفترضين أنهم "القيادة القومية الشرعية" ويطلبون التعامل معهم على هذا الأساس. وكان الموقف عصيباً بحق... التنظيم الحزبي داخل العراق، بالكاد يلملم صفوفه المتنازعة الممزقة ولكنه يتقدم حثيثاً صوب الوحدة التنظيمية والفكرية، والسلطة القائمة داخل البلاد- سلطة الأسرة العارفية- تحاربه بكل وسائلها البوليسية، والسلطة السورية الرسمية التي تدعي أنها الممثل الشرعي الوحيد للقيادة القومية تنسق مع السلطة العارفية خطط محاربته، فضلا عن إنفاق أموال الدولة وتوجيه أجهزتها الإعلامية عبر حملات نفسية رهيبة ضده، متهمة إياه بالتهم التقليدية التي يصطنعها كل انقلاب : اليمينية والرجعية .. استخدمت القيادة القطرية في البداية قدر اً كبيراً من المرونة، لكي تتمكن من رأب الصدوع داخل التنظ يم الحزبي، وإعادة صياغة وحدته الفكرية والنفسية . كان الهجوم العنيف والوصول إلى حد المواجهة الصريحة مع السوريين يعني الإ سراع بعملية الانقسام داخل التنظيم ، سيكون مثل هذا الموقف مغامراً يكسب المبدأ ويخسر القضية.

ولم تمض سوى فترة قصيرة، حتى تزايد ضغط السوريين، وتلاحق مندوبوهم إلى العراق يحملون شعار : الانتخابات داخل التنظيم في العراق . وكان صدام حسين قد توقع أن يطرح السوريون هذا الشعار، وناقش الأمر مع رفيقيه في القيادة: عبد الركيم الشيخلي، وعبد الخالق السامرائي، وكان الاجتماع بالرفيق أحمد حسن البكر صعباً لظروفه الأمنية الخاصة. ولم يكن قد مضى على خروجهم من السجن سوى أربعة وخمسين يوماً فحسب. عارض شعار الانتخابات كثير من أعضاء الحزب، ولكن صدام حسين قال لهم بوضوح: "إن من سيعارض هذا الشعار الآن ويقف أمامه سوف يسحق، ويسحق معه كل اتجاهنا، فالبعض يريد الانتخابات بحسن نية لأنه يود أن يغرف الخط السياس ي والتنظيمي بوضوح وتبلور وتميز، والبعض يريدها بالطبع غطاء للتخريب، ولكن في كل الأحوال ستتوقف النتائج على مدى ما تبذله القيادة وأنصارها من نشاط". واستقر الرأي في النهاية على أن تدعو القيادة القطرية قيادات الشعب والقيادات الرأسية والكادر المتقدم عموم اً، وتطرح أمامه الصورة بتفاصيلها، وبوضوح وصراحة . وتقترح عليه تشكيل لجنة من بين صفوفه للأشراف على الانتخابات، بحيث لا تجري الانتخابات إلا بعلمها، ولا تصبح صحيحة إلا بعد تصديقها، وكل ما يجري خلافا لذلك يعتبر كأنه لم يكن 6 وفي هذه الحالة تعتبر القيادة القطرية منحلة لحين إجراء الانتخابات.

وعلى الرغم من أن بين أعضاء هذه القيادة اثنين من أعضاء القيادة القومية لا يجوز- طبقاً للائحة الحزب- أن ينزلا إلى القاعدة ويدخلا عملية الانتخابات مرة أخرى داخل القطر العراقي، فقد أصر صدام حسين على أن الوضع لا يتحمل الآن التشبث بالشرعية التنظيمية أو القانونية، وأن ما هو أهم هو وجود الحزب نفسه داخل العراق.

وبعدها، لم يعقد اجتماع أو ندوة أو مؤتمر لأعضاء الحزب، في أي مكان أثناء عملية التحضير للانتخاب، إلا وحضره صدام حسين، ورغم كل ما واجهه في تلك الاجتماعات من المندوبين السوريين وأنصارهم "العراقيين"، من استفزازات، وتهجمات، ومحاولات كريهة لكسر صلابة مواقفه، ف إنه تحمل كل شيء بصبر غريب، وأعصاب فولاذية لا تتأثر، وإرادة عميقة الإيمان بالانتصار في النهاية . ولم يكن في تلك الأيام يتمتع بصحة موفورة ولا حتى صحة عادية . كان وضعه الصحي مزرياً، إلى حد أنه ذهب لحضور ندوة حزبية- في فترة الانتخابات- وهو يعاني التهاباً حاداً في معدته، حتى إنه تصور نفسه قد أصيب بالكوليرا التي كانت منتشرة أيامها في العراق . أصر على أن يحمله رفاقه ويضعوه في السيارة وينقلوه إلى بيت "صلاح عمر العلي"- حيث كانت تعقد الندوة- فيبقى ممدداً على أريكة. فإذا وجد القوة في نفسه

ليتكلم فلسوف يفعل، وإلا فليسمع على الأقل ، ولكنه عندما وصل إلى هناك، ووجد نفسه وسط حمية النقاش، انبثقت في نفسه قوة داخلية غريبة. فظل يتكلم حتى انتهى الاجتماع وحقق نتائجه المرجوة..

ووصلت الانتخابات إلى النقطة الحاسمة: فرع بغداد. وجاءت النتيجة معاكسة تماماً لما كان يريده المندوبون السوريون. انتخبت القائمة التي تدين بالولاء للتيار الذي يمثله صدام حسين، فخرج المندوب السوري منزعجاً، ولكنه لم يملك إلا أن يقول لصدام: والله يا عمي أنتم رجال ... فردها له صدام بأحسن منها وقال له : أبو رياض، (هكذا كان اسمه) "إحنا رجال للحزب وليس على الحزب"..

وكان لا بد أن ينعقد بعد ها المؤتمر القطري لانتخاب القيادة القطرية الجديدة . وتم عقد المؤتمر في بيت- عبد الرحمن سهيل، في منطقة "أبي غريب" ليلا. وتولى صدام حسين رئاسة المؤ تمر، وإدارة المناقشات، والإ شراف على إجراء الانتخابات.

ومن بين أعضاء المؤتمر كان ثمة مجموعة من المتأثرين بقيادة الانقلاب السوري، والمتفقين مع خطهم . ولم يكن قد حدث انشقاق رسمي بعد، بين التنظيم في العراق ونظيره في سوريا .. وجرت مناقشات واسعة حول حضور أو عدم حضور "المؤتمر القومي"، الذي يريد السوريون عقده الآن، واتفق على أن يذهب المندوبون العراقيون ويطرحوا وجهة نظرهم بعقد مؤتمر قومي استثنائي تحضره الأطراف المتنازعة كلها، ليقول كلمته في كل شيء . والواقع أن التيار الذي كان يمثله صدام حسين- والذي صار عبر عملية الانتخاب تياراً غالباً- كان يريد أن يكسب بهذا الاقتراح فسحة من الزمن، ولا أكثر . فلقد كانت لديه قناعة بأن الانتخابات التي جرت لا ترضي السوريين، والقياديين الذين انتخبوا لا يحظون بموافقتهم، وأغلب الظن أن القيادة السورية- التي تدعي شرعية تمثيل القيادة القومية- سوف لن تجد أمامها حلاً يتوافق معها سوى حل هذه القيادات المنتخبة، وتعيين بديلاً عنها ترضى به وعنه.

ولقد كان هذا هو ما جرى بعد ذلك حتى بتفاصيله. انتخبت القيادة القطرية الجديدة في تلك الليلة، وكانت ممثلة في: احمد حسن البكر، صدام حسين، كريم الشيخلي، صالح مهدي عم اش، طه الجزراوي، عبد الخالق السامرائي، صلاح عمر العلي، عزة مصطفى، عبد اللة سلوم.

ولأن صدام حسين كان يقظاً في تلك الليلة لما يمكن أن تؤدي هذه النتائج إليه من جانب السوريين فقد قدم اقتراحاً بقرار إلى المؤتمر يقول : "إذا اختلفت القيادتان القومية والقطرية، وأد ى هذا الاختلاف إلى أن تصدر القومية قرار اً بحل القطرية، فإن هذه القيادة في القطر العراقي لا تعتبر منحلة إلا أمام مؤتمرها ، وعلى هذا الأساس تدعو إلى عقد مؤتمر استثنائي قطري وتطلب منه أن ينتخب قيادة جديدة".

والطريف في الأمر أن جميع المؤتمرين- بمن فيهم الذين كانوا يسيرون على نهج القيادة السورية- وافقوا بالإجماع، وكان مغزى هذا القرار، في الواقع، هو إلغاء كل سلطات القيادة القومية "المدعاة" على تنظيم الحزب في العراق. وبعد شهر ونصف فقط من انتهاء المؤتمر، سمع أعضاء القيادة القطرية الجديدة "المنتخبة"، نبأ "فصلهم"، من إذاعة دمشق.. فلم ينتظروا على الحديد حتى يبرد، طرقوه على الفور وهو ساخن . وعقدوا- طبقاً لقرار المؤتمر السابق- مؤتمراً استثنائياً أعاد انتخاب القيادة القطرية نفسها، مرة أخرى.

ومن يومها أعلنت القيادة الجديدة- القديمة، العداء الرسمي السافر لدمشق وحكومتها، ووقع الانشقاق الرسمي السافر في الحزب، وبدأت داخل العراق حملات مكثفة لتوعية أعضاء التنظيم وتثقيفهم في هذا الاتجاه . وبدت خريطة القيادة حينذاك على هذه الصورة: أحمد حسن البكر "أميناً للسر"- صدام حسين "نائباً لأمين السر"- وتولى أيضاً مسؤولية فرع بغداد، والتنظيم النسائي، والفلاحي. بينما تضمن التنظيم العسكري : أحمد حسن البكر، وصالح مهدي عماش، وطه الجزراوي. وتسلم صلاح عمر العلي مكتب العمال، وتولى عبد الخالق السامرائي مسؤولية مكتب الاتصال الخارجي . وعزت مصطفى، المكتب المهني . أما مسؤولية الجهاز الخاص- الذي كان يطلق عليه في ما مضى اسماً حركياً هو

"حنين"- فقد تم تشكيله بطريقة أخرى، على أساس أن يكون "جهازاً صدامياً" يتكون من المدنيين الذين يقومون بدور محدد في تنفيذ الثورة، وتولى مسؤوليته: صدام حسين نفسه.

وسار العمل الحزبي على طريقه الجديد بهمة ونشاط وتقدم دائب، واضعاً نصب عينيه أن ينهض في العراق بثورة قريبة، معتمداً على قواه الذاتية، وتحالفاته المدروسة بعناية، وتغلغله في التنظيمات والمؤسسات الجماهيرية، وعلى رأسها المؤسسة العسكرية المتمثلة في القوات المسلحة، وقبل ذلك كله، وبعده، على مبادئه المحددة، ووضوحه الأيديولوجي والفكري.

وشيئاً فشيئاً، بدأ العد التنازلي، واقتربت ساعة الصفر.

12- 17 تموز وحصان طروادة

ما من مناضل ثوري لا يبحث عن السلطة. ولكن ما من مناضل ثوري، حقيقي، تكون السلطة بالنسبة له، هدفاً لذاتها، أو غاية في حد ذاتها. السلطة دائماً وسيلة، ذريعة، أداة تمكن الثوريين أصحاب الرؤية الشاملة المتكاملة من تغيير المجتمع تغييرا شاملا ومتكاملا، وعلى طريق يؤدي إلى السلطة. بهذا المعنى، مشروع ومبرر، ما دام بوسعه أن يقود في النهاية إلى تحقيق المبادىء وتجسيد الحلم.

وفي كل الثورات التي تحققت حتى الآن في عالمنا، بورجوازية كانت أو اشتراكية، ليس هناك "جماهير" تزحف وحدها، وتجتاح النظام القديم، وتقيم على أنقاضه سلطة نظامها الجديد. وإنما هناك دائماً- في الثورات الناجحة على الأقل- قيادة طليعية تنهض في لحظة الثورة بالعبء الأكبر والأخطر. والقيادة بالنسبة للجماهير هي بمثابة الرأس من الجسد، فكما أن ليس ثمة رأس يتحرك بغير جسد، فإنه من المستحيل أيضاً أن يتحرك جسد بغير رأس. وحيوية الثورات، مثلما هي حيوية الجسد البشري، تتألق بالوحدة العضوية بين قمتها وقاعدتها، وتتناسب طردياً مع عمق الارتباط الجدلي بين المركز الموجه والأطراف المستجيبة.

ولقد تكاملت لدى القيادة الحزبية في العراق، في تلك الأيام الحافلة من عام 1968، قناعة مبنية على حسابات التحليل العلمي والجماهيري، بأن النظام القائم يتهاوى من داخله، بفعل تناقضاته الحادة نفسها، وإن الحركة الثورية داخل البلاد، باتت قادرة بإمكاناتها الذاتية، على النهوض بعبء التغيير السياسي والاجتماعي. ولم تعد لحظة الثورة نفسها تتطلب سوى القيادة "الحكيمة والحازمة" التي تخطط، وتقرر، وتقيم تحالفاتها المؤقتة أو الدائمة، وتقود التناقضات المحتدمة إلى حلها الثوري. غير أن حكمتها لا ينبغي أن تتمثل فقط في الفهم العميق لتناقضات اللحظة الثورية على المستوى النظري، وإنما- بدرجة لا تقل عن ذلك خطورة وأهمية- في القدرة على امتلاك فن أساليب العمل الثوري نفسه، أي التمكن من فن صناعة الثورة في الواقع العملي. والأسلوب الذي اختارته هو أن يسقط النظام من داخله، من المواقع التي يأتمنها، ومن الموقع الذي يأتمنه، ولذلك جرى البحث سريعاً عن "حلفاء" مؤقتين من بين أعمدة النظام نفسه، يعاونون في مهمة التغيير، في نفس الوقت الذي كان يجري فيه التركيز على بناء وتدعيم أجهزة الحزب.

وفي تلك الفترة وصل "حردان التكريتي" من أوروبا- حيث كان يقيم بعد أن أبعده عبد السلام عارف إليها- إلى بغداد. وجرى الاتفاق على أن يكون "حردان" واسطة- فلتر- بين القيادة، وإبراهيم الداود، الذي كان قائداً للحرس الجمهوري، ذلك الذي سوف يصبح- طبقاً لخطة القيادة- نقطة التهاب الثورة داخل بنية النظام نفسه. ولقد كان اختيار "حردان" الذي لم تكن له علاقة تنظيمية بالحزب "مطمئناً" في مثل هذه التحالفات المؤقتة التي تخضع في الطرف الآخر منها- أي طرف أعمدة السلطة القائمة- لطبيعة المصالح الشخصية والأهداف الذاتية التي يتطلع إليها طمعها أو طموحها.

وتمت في الوقت نفسه عمليات موازية مهمة: استكملت القيادة بناء "الجهاز الخاص" من المناضلين الحزبيين، المجربين، المعروفين لها شخصياً. وجرى تجميع لقطع السلاح، وبخطة صبورة متأنية تم شراء الملابس العسكرية التي سوف

يرتديها أعضاء القيادة وأعضاء ا لجهاز الخاص لحظة اقتحام القصر الجمهوري، ووضعت جميعها في مخابىء سرية جرى ترتيبها في بيت أحمد حسن البكر، وصدام حسين.
وكعملية تغطية ضرورية حتى لا يلتفت النظام إلى أية حركة غير عادية من جانب الحزب، كانت الخطة تقتضي إغراق معظم أعضاء الجهاز الحزبي، في عقد ندوات واسعة تناقش مسألة كانت مطروحة في الساحة السياسية العراقية أيامها وهي: هل نشترك بالحكم أم لا؟ من يوافق؟ ومن يعترض؟ في ويجري توزيع بعض الرفاق القياديين على هذه الندوات كي يوجهوا النقاش في اتجاه رفض المشاركة في الحكم.
في ذلك الوقت تكون ثمة عملية أخرى تجري بسرعة وسرية بالغة: تجميع رفاق محددين في أماكن محددة كانت ثلاثة أماكن على التحديد، هي بيت أديب المفتي، وبيت كريم الندا، وبيت سعد الراوي، يكونون على أهبة الاستعداد للتحرك عند إشارة البدء. أما "الجهاز الخاص" فلقد تقرر أن يتجمع أعضاؤه في "كازينو" 14 تموز- يوليو بحي الكرخ.
غير أن التوقيت المقرر في ذلك الوقت ألغي، كما تم إلغاء جانب من الخطة وهو الخ اص بعقد الندوات وإدارة المناقشات، وتم تحديد ساعة أخرى للصفر. وفي السادس عشر من يوليو- تموز عام 1968، جلس أعضاء القيادة في بيت الرفيق أحمد حسن البكر، يتدارسون الصورة النهائية لخطتهم قبل التنفيذ بأربعة وعشرين ساعة ، كان ذلك في الساعة الحادية عشر صباحاً بالضبط.
وبينما هم يتناقشون إذا برفيق منهم يقول : لندع وضع خطة التنفيذ للرفاق العسكريين فهم أقدر ، وهنا عارضه صدام حسين بقوة قائلا: "لا.. الخطة تضعها القيادة كقيادة تتحمل مسؤوليتها أمام كل الاحتمالات ، ليس ذلك لعدم ثقتي بقدرة الرفاق العسكريين، وإنما لأن المؤسسة القيادية هي التي ينبغي أن تضع كل شيء، وتتحمل مسؤولية كل شيء"، وهذا ما جرى بالفعل.
غير أن موضوعاً آخر، بالغ الأهمية، أثاره هذه المرة صدام حسين نفسه ، وهو ضرورة ألا تكون القيادة مخططة فحسب، وإنما منفذة أيضاً، أي أن تشارك بكل أعضائها في عملية تنفيذ الثورة من لحظ ة انطلاقها حتى استكمال عملية الاستيلاء على السلطة. وكان يحكمه في ذلك اعتباران: الأول لكي يرفع حماس الرفاق الحزبيين- غير القياديين- إلى أعلى مستوى ممكن. أما الثاني- ولعله الأهم- هو ألا تصبح الثورة في حالة نجاحها فضلاً لقلة من العسكريين، وامتيازاً لهم يتيهون به على غيرهم. فما زالت أصداء الأسئلة التي ثارت بعد ثورة رمضان 1963، في الأجواء غير الصحية التي صاحبت بعض ظروفها، ترن في أذنيه: وأنت أين كنت ساعة الثورة؟ وهذا أو ذاك من الرفاق أين كان؟ مثل هذه الأسئلة التي كان يتقاذفها الرفاق القياديون فيما بينهم أيامها، لا ينبغي أن تطرح هذه المرة، أو تعود للظهور من جديد. إذن فكل أعضاء القيادة سيكونون في المقدمة، هم أنفسهم ينبغي أن يكونوا أدوات تنفيذها، وعلى أيديهم يتحقق مصيرها، وبأيديهم يواجهوا احتمالاتها.
ورغم بعض الاعتراضات الطفيفة التي أثارها بعض الرفاق حول "المغامرة بالقيادة" في حالة فشل الثورة، فإن إصراره على الأمر، ثبت رأيه، ووضعه في صيغة قرار لا يقبل النقض . وبعده جرى استعراض سريع لعناصر الخطة: سوف يتجمع عدد من الرفاق المحددين في أربعة أماكن للتجمع، بينما يتجمع أعضاء الجهاز الخاص في حدائق "كازينو" 14 يوليو- تموز باللكوخ، وعند ساعة الصفر سوف يتسلم الرفاق في كل أماكن تجمعهم الأوامر الخاصة بواجباتهم ، وستكون القيادة بكامل هيئتها على رأس حركة التنفيذ ، وسيتوجهون جميعا ناحية القصر الجمهوري ، وهناك على باب كتيبة الدبابات الخاصة بالحرس الجمهوري سينتظرهم "سعدون غيدان" الضابط بالحرس الجمهوري أيامها، ويسهل لهم فتح أبواب الكتيبة، واقتحام القصر، ومن هناك سوف تتحرك الدبابات التي سوف يستولون عليها لتصوب نيرانها تجاه القصر، وتجبر عبد الرحمن عارف على التسليم لقوى الثورة.
ولكن هل يقتل عارف أم لا يقتل؟ تلك مسألة كانت قد اتفق عليها بين صدام حسين والفريق الراحل "حماد شهاب".
كان حماد شهاب قائد اللواء المدرع العاشر الذي يعتبر بمثابة "كرة الحديد"

في يد الجيش العراقي ، وفي ذلك اللواء كان لحزب البعث عدد من الرفاق الضباط والأصدقاء ، وكان آمر اللواء نفسه "حماد شهاب" غير بعيد في علاقاته الشخصية من بعض قادة الحزب وعلى رأسهم : أحمد حسن البكر، وصدام حسين . ولكنه عندما فوتح في أمر الثورة تردد كثير اً، وكان يحكمه في ذلك اعتبار أخلا قي، يضعه فوق كل اعتبار . وهو أنه تعهد لعبد الرحمن عارف بأن يكون إلى جانبه في حالة قيام أية حركة ضده ، وفي كل مرة كان أحمد حسن البكر يثير معه قضية المشاركة في الثورة، كان يرد عليه بنفس الرد . ولكن صدام استأذن رفيقه البكر في أن يناقشه بنفسه، وذهب إليه بالفعل وطرح معه القضية بطريقة حاول بها أن يخلصه من حرجه الأخلاقي. قال له: "أبو رعد ترى لماذا لا توافق على المشاركة؟ أنت قلت له- يقصد عبد الرحمن عارف- أنا معك. ولكن لماذا لا تكون مع الشعب العراقي هذا الذي أهين، وتمزق، ويخضع للإ ذلال كل يوم؟ ألا تستحق كرامة هذا الشعب، وتاريخه، ومستقبله كطاقة ثورية في خدمة الأمة العربية، بعدما أصابها من اندحار شنيع في الخامس من حزيران، أن تتخلى عن التزامك به الذي قطعته على نفسك؟ ثم إن هناك فارقاً بين التزام والتزام، وخصوصاً عندما يتخلى الطرف الآخر عن التزامه بالقيم السامية والمثل الشريفة. فأين هو التزام عبد الرحمن عارف بهذه القيم والمثل؟ .. ومع ذلك، فنحن من أجل هذا الوعد الذي قطعته له، سوف نبقي عليه حياً، ولن نمسه بسوء، يكفينا شره فقط ، ويلقي هذه العصا من يده، ويتخلى عن السلطة حتى تأخذ الأمور مجراها الطبيعي، وتسلك الثورة طريقها، ما رأيك إذن يا أبا رعد؟، نظر إليه حماد شهاب وقال له : هل تعطيني وعداً أكيداً بألا يقتل عبد الرحمن عارف؟. قال له صدام حسين : هذه كلمة رجال يا أبا رعد... وعاد صدام بعدها، وأخبر رفيقه البكر بأن حماد شهاب قد وافق، وأن اللواء المدرع العاشر سيأخذ مكانه ضمن خطة الثورة في يوم التنفيذ، مع الالتزام بالوعد الخاص بالحفاظ على عبد الرحمن عارف حياً . وكان دخول هذا اللواء ضمن خطة التنفيذ، عاملا أساسياً في نجاحها، فكرة الحديد سوف تكون في النهاية هي الأقدر على الحسم. وكان هذا اللواء يعسكر في منطقة يقال لها، "الورار"، بعيداً عن بغداد. وتم الاتفاق على أن يتحرك هذا اللواء، عند تبليغه بموعد الثورة، متجهاً صوب العاصمة ليحيط بها كما يحيط بالمعصم السوار.

غير أن صدام حسين، في لحظة من لحظات الشفافية والتنبؤ بما يمكن أن يحدث في المستقبل، أدرك أنه من الممكن أن يحاول طرف من الأطراف الذين تتحالف معهم قوى الثورة تحالفاً مؤقتا، أن يحاول إبعاد هذا اللواء عن بغداد، تحت حجة أن الثورة نجحت، وأن عليه أن يعود إلى مواقعه الأولى بعد انفضاض الحاجة إليه، ويكون ذلك إيذانا بحركة مضادة من جانبهم للاستيلاء على الثورة ، فأسر في أذن الرفيق البكر أن يجري التشديد في التنبيه على اللواء المدرع العاشر بضرورة التقدم نحو بغداد حتى لو بلغه طرف أو آخر، بأن الثورة نجحت وأن عليه أن يعود إلى سابق موقعه ، ولعله كان إدراكاً مبكراً، لما سوف يجري، شبيهاً بالإلهام. فلسوف تتحقق "النبوءة" بعد يوم واحد كما حدسها.

كل شيء أصبح منتهياً الآن.. الخطة جاهزة للتنفيذ.. الرفاق مستعدون.. ساعة الصفر تحددت.. والأوامر على وشك أن تصدر من القيادة بالبدء في التنفيذ، بعد ساعات قليلة.

ولكن جرس الباب يدق ، ويذهب أحمد حسن البكر ليرى من يدق الباب في هذه اللحظة الشديدة الحرج والخطورة ، ثم يعود لهم بعد برهة، وقد بدا على وجهه القلق العنيف والتعب النفسي البالغ، حاملا بيده رسالة طرحها أمام أعضاء القيادة المجتمعين وهو يقول: اسمعوا هذه الرسالة التي جاء بها "أحمد مخلص" الضابط بالاستخبارات العسكرية:

"أخي أبو هيثم، بلغني إنكم ستقومون بثورة بعد ساعات ، تمنياتي لكم بالتوفيق، وأتمنى أيضاً أن أشاركم... التوقيع عبد الرزاق النايف مدير الاستخبارات العسكرية"..

وأسقط في يدهم، دارت رؤوسهم، ومادت الأرض من تحت أقدامهم، وكأن كرة الحديد قد مستهم ، وبدا أن كل شيء قد صار الآن قبض الريح . كل الآمال الكبيرة تتقوض في لحظة ، كل الخطط والترتيبات والنضالات الطويلة باتت هشيما تذروه الرياح، بل إن الكارثة تلوح شيئاً فشيئاً أكبر وأفدح، إن الحزب كله أصبح في هذه الساعة مهدداً تهديداً خطيراً بالتصفية الشاملة، فضلا بطبيعة الحال عن أن الجالسين هنا الآن، سوف يواجهون بعد لحظات، عقوبة الإعدام.

ونهض بعض الرفاق من أماكنهم، وأخذوا يمشون في الغرفة جيئة وذهاباً، وكأنهم يتحركون في قفص حديدي صغير ، وانطلق واحد منهم، وقد بدت أمامه النهاية المفجعة واضحة وضوح السطور القليلة الحاسمة التي حملتها الرسالة، صارخاً في وجه الآخرين، مديناً تلك التحالفات- التي كان يوافق عليها منذ لحظة، والتي أدت إلى هذه النهايات المدمرة، واعتبر التحالف ص مع "الداوود" آمر لواء الحرس الجمهوري هو الذي قاد إلى إفشاء أسرار الثورة ، وأفضى إلى هذه الكارثة.

ولكن الآن؟ ليست هذه الساعة، ساعة لوم أو ندم ، والعجز ، في النهاية، لا يليق برجال يوشكون على القيام بثورة ، لا بد من مخرج، ولكن من يقود إلى المخرج؟.

تكلم صدام حسين ، وأوقف المناقشات التي تولول بعبارات اللوم والندم ، وقال في حسم مطلوب و مفتقد في تلك اللحظة : أنا أقترح أن نقبل مشاركته. ونظر إليه الجميع وقد عقدت الدهشة ألسنتهم، ولكنه كمن يتلو قرارا أكمل:

"أقترح أن يذهب إليه الرفيق أحمد حسن البكر ومعه حردان التكريتي وصالح مهدي عماش أو اثنان منهما، ويقولون له: نحن نقبل. حياك الله... وما كنا نتصور من قبل إنك تريد أن تشاركنا ،ويعرضان عليه الموقع الذي يرضيه بعد الثورة، فيما عدا رئاسة الجمهورية ، ولكن بشرط، هو تصفيته فوراً أثناء الدخول إلى كتيبة الدبابات أو بعد ذلك، إنني إذ أقترح هذا فإنني أدرك بأنه ما كان من الممكن أن نفعله لو أن هذا الرجل قد شاركنا العمل وفق صيغة طبيعية ولو كنا متأكدين من وطنيته وإنه يريد المشاركة لإنقاذ الشعب. وإنما فرض علينا، وهو يريد أن يطعن الحزب خدمة لجهة ما مثلما طعنه من قبل عبد السلام عارف ولذلك فانه لأمر مشروع وأخلاقي أن لا يغدر الحزب والثورة مرة أخرى ، وأن ندفع عنهما الأذى في حالة الرفض وأن ندفع عنهما الأذى في حالة القبول، ومن الآن نتفق.

إنني أخجل أن أقترح نفسي في يوم ما لأية مهمة ، ولكن هذه المهمة لا أظن إنني أخجل منها، إنني أقترح عليكم ترشيح الرفيق صدام حسين للقيام بهذه المهمة، بدون مناقشة بالتفاصيل ، ويترك له اختيار اللحظة المناسبة، اعتباراً من دخول كتيبة الدبابات وما بعدها، لتصفيته، وبالطريقة التي يراها ويعتبر هذا القرار نهائياً، غير جائز أن يوضع موضع المناقشة في المستقبل".

وأفاق الحاضرون بعد أن انتهى من كلماته- أو قراره- وكأنه قد انتشلهم من غرق. ورفعوا أيديهم بالموافقة على قراره بالإجماع.

وانفض الاجتماع على موعد- بعد ساعات- مع الثورة.

13- الثورة تملك ولا تحكم

في تلك الساعات الأولى من صباح 17 يوليو- تموز 1968 فتح صدام حسين المخبأ السري في بيته، وأخذ يخرج الملابس العسكرية، وبعض الأسلحة والقنابل اليدوية منه ، وكانت "ساجدة" تقف إلى جانبه وتساعده. حتى عدي الصغير كان ساهراً، هذه المرة لم يكن يحمل الرسائل في صدره، بل كان يجري ليمسك بقنبلة يدوية تتدحرج هنا أو هناك، ليجلبها لأبية ويتعلق بكتفه، وهو يظنها لعبة.

وكان الرفاق الذين حددتهم القيادة، في الأماكن التي خصصت لتجمعهم، ينتظرون الأمر بالتحرك، بينما كان أعضاء القيادة نفسها، قد تكامل عددهم في منزل "كريم الندي"، حيث سوف تنطلق منه بعد لحظات فرقة الهجوم الأولى على القصر الجمهوري، كانوا جميعاً في ملابسهم العسكرية الحقيقية أو "الزائفة"، وبينهم كان يقف الملازم صدام حسين، وخلفه تماماً يقف الملازم "برزان"- أخوه- الذي أصر على أن يصحبه وهو في الثامنة عشر من عمره.

في الثانية وخمسة وأربعين دقيقة، تحركت سيارة "مرسيدس" بيضاء يقودها صاحبها "حردان التكريتي" وإلى جواره "أحمد حسن البكر"، ومن خلفهما صالح مهدي عماش، من أمام بيت "الندي"، وتحرك من ورائها مباشرة لوري عسكري كان يحمل صدام حسين، وبقية أعضاء القيادة، فضلا عن مجموعة قليلة من الرفاق الآخرين، بينهم برزان، وجعفر

الجعفري، وذياب العلكاوي، وعزت الدوري الذي زعم أنه خبير وقتها في قيادة الدبابات، حتى لا تفوته المشاركة في الهجوم على القصر.

وكان أحمد حسن البكر هو قائد الحملة، وعلى رأس الموكب ، وما أن اقترب الموكب من باب كتيبة الدبابات حتى لاح وجه سعدون غيدان وهو واقف ينتظرهم ، وفجأة. صاح "سعدون"، في الحرس الخاص بباب الكتيبة : قف.. هؤلاء جماعتنا.. إفتح الباب دعهم يدخلون... إلى الأمام.

فتح الباب، أصبحوا داخل الكتيبة، تقدموا نحو الدبابات في "كواجاتها". وبدأ الرفاق يحركونها ويسلمونها للآخرين، ثم يعودون سريعاً ليحركوا غيرها ، وعندما سمع صوت الدبابات نهض الضباط والجنود من القاعة المجاورة وجاؤوا يركضون، وفجأة صاح بهم صدام حسين، ومن خلفه برزان : تجمع.. تجمع.. تجمع.. وقادوهم إلى القاعة مرة أخرى، ثم عادا مسرعين ، وتسلقا ظهر دبابة على الفور، ومعهما ذياب العلكاوي ، فاذا ببرزان يلمح جندياً يحمل بندقية "كلاشنكوف" إلى جانبه، فانتزعها منه عنوة بعد أن ألقاه على الأرض ، ورآه صدام. فقال له: "إعطي المسدس لـ "بو خليل"، يالله معنا أبو خليل يالله ابني، أنت معنا فعلا، ابني. ملازم برزان ما يعرفك، أنت معنا، "سحب برزان المسدس وأعطاه للجندي الذي أخذ منه مدفعه والجندي لم يغضب ، واكتشفوا- لحسن الحظ- أن هذا الجندي يعرف كيف يقود الدبابة.

وقاد بهم الدبابة بالفعل، وفي الطريق ما بين باب الكتيبة، والباب النظامي للقصر، وقفت الدبابة، وبدأت تطلق نيرانها، وتعلم صدام حسين ساعتها كيف تطلق نيران الدبابة ، علمه الجندي الذي أخذت بندقيته عنوة منة ، قال له صدام: "ابني أترى إني ضابط مشاة، ما أعرف استخدام الدبابة ، ما تعلمني شلون يستعملون الدوشكة للرمي"؟ قال له الجندي: "سيدي هذا فقط تسحبه بهذا الشكل، وهذا تضغط عليه من هنا ، وهذه اعتيادية هكذا"، ولكن الجندي الذي لم يكن يفهم من الأمر شيئا عاد يسأله: "سيدي ماذا في الأمر؟" قال له صدام: "طاهر يحي (الذي كان رئيساً للوزراء) يريد يسوي انقلاب على عبد الرحمن عارف، على الرئيس، وإحنا نفزع له ونفك عنه الحصار". قال الجندي: "بارك الله فيكم".

وعندما اقتربت الدبابة من الباب النظامي، بدأت تطلق نيرانها على مبنى القصر، وفي نفس الوقت كان حردان التكريتي يتصل تليفونيا بعبد الرحمن عارف ويطلب إليه "أن يسلم نفسه".

بعد فترة قصيرة خرج عبد الرحمن عارف، وأعلن تسليم نفسه، طبقا للوعد بأن لا تمس حياته، وتوقف إطلاق النار.

وعند الفجر أعلنت إذاعة الجمهورية العراقية على الشعب العراقي، والأمة العربية، والعالم أجمع نبأ قيام ثورة 17 تموز- يوليو المجيدة في القطر العراقي، وبيانها الأول، موقعاً باسم مجلس قيادة الثورة، وانتقل "الرئيس" احمد حسن البكر إلى مكتبه في القصر الجمهوري، وتألفت الوزارة الجديدة، طبقاً للمخطط الذي كان قد وضع من قبل، واحتل عبد الرزاق النايف منصب رئيس الوزراء، وإبراهيم الداوود منصب وزير الدفاع، وحردان التكريتي رئيس أركان الجيش، وصالح مهدي عماش منصب وزير الداخلية.

وخلع صدام حسين بدلة الملازم العسكرية وارتدى بذلته المدنية العادية، وحمل بدلا من الرشاش مسدسه عيار 13 العادي.

ولم تكن اللحظة مواتية لتصفية عبد الرزاق النايف ، كان الضباط الرجعيون يسيطرون تقريباً على معظم المواقع داخل القصر. بينما كان اللواء المدرع العاشر معسكراً في منطقة أبي غريب على حدود بغداد بعد أن رفض أوامر عبد الرزاق النايف بالعودة إلى موقعه السابق كما توقع صدام حسين بالضبط ، وبدأ حردان التكريتي يجري- بوصفه رئيساً للأركان- بعض التغييرات في مواقع الضباط، وينقل ضباط الصف المنتسبين من خارج بغداد إلى بغداد نفسها، وبعدها بقليل التحقت دفعة أخرى من ضباط الصف بمواقعها الجديدة في داخل العاصمة أيضاً، وصار الوضع أفضل بالمعنى النسبي.

ولكن "صدام" كان مهموماً، قلقاً، في تلك الأيام، كما لم يكن كذلك قط في حياته. كان يجتمع مع أعضاء قيادة فرع بغداد، ويوجههم باتجاه وحدة الحزب والتركيز عليها، ويشير إلى أن الحزب ليس وحده في الثورة، وإن هناك "جهة" متحالفة معه، دون أن يوضح هذه الجهة حتى لا تكثر التأويلات والتفسيرات تبعاً للهوى.

غير أن "حماد شهاب"، أيضاً كان مهموما، وقلقاً. فرغم أنه كان أمر اللواء المدرع العاشر، فإنه لم يكن عضواً في مجلس قيادة الثورة، وإذ رآه صدام في هذا الوضع النفسي في الأيام الأولى للثورة، سحبه من يده، وكانا جالسين بغرفة في القصر، وخرجا إلى الردهة الخارجية يتمشيان. قال له صدام: لماذا أنت لست عضواً في مجلس قيادة الثورة؟، إنهم الآن مجتمعون، أدخل عليهم غرفة الاجتماع فوراً، وقل لهم: إما أن تكون عضوا بالمجلس أو أن تقلب الدنيا، فإذا قبلوا "زين"، وإذا رفضوا "زين" أيضا... ودخل حماد شهاب غرفة الاجتماع في التو، وخرج منها عضواً بمجلس قيادة الثورة.

ومع ذلك، ظل الهم والقلق يلازمانه، والخوف على الثورة لم يزايله قط. صحيح إنه في مكتب رئيس الجمهورية يجالس الرفيق أحمد حسن البكر، ولكن أولئك الذين تسللوا إلى الثورة في "حصان طروادة" الجديد، السافر هذه المرة، يمثلون أخطاراً جدية على الثورة، وتهديداً حقيقياً لها في أي وقت. بل إن كل لحظة تمر ترسخ أقدامهم، كل لحظة تمر، في وجودهم، هي لحظة مخصومة من عمر الثورة، وفضلا عن ذلك فإن تاريخهم الخاص غير النظيف، يلقي بظلاله على أفق الثورة، ويحيلها في الوجدان العام الذي لم يكن يعرف ما جرى، وما يجري، إلى حركة شبيهة بأي انقلاب عسكري، وأكثر من ذلك فإن استمرارهم كان يعني ببساطة إعقام الثورة، ووقفها عن النمو، بل ودفعها إلى الوراء كلما أمكن، فحتى شركة النفط الوطنية التي تأسست في عهد عبد الكريم قاسم يريد عبد الرزاق النايف الآن، صراحة، وفي اجتماعات مجلس الوزراء، أن يحلها.

فما عساه يبقي للثورة بعد ذلك؟ وماذا بو سعها أن تحقق من أهدافها التي قامت من أجلها؟ لم يكن الوصول للسلطة من أجل السلطة لذاتها، والحزب الذي ناضل عشرات السنين، ودفع مئات أو ألوفاً من الشهداء على طريق نضاله، ودرس، وخطط، وقرر، وقاد، وشارك بقيادته كاملة في تنفيذ الثورة، كيف يمكن له أن يظل أسيراً لاثنين من المتطفلين والدخلاء، لا على الثورة فقط، بل على الشعب العراقي نفسه، بجماهيره المذلة، المهانة، المضحية، والباحثة في الثورة عن خلاصها النهائي؟.

كان القلق يتصاعد في نفسه يوماً بعد يوم، وكل ساعة، بل كل لحظة، تحمل

إلى نفسه مخاوف جديدة على الثورة ومصيرها، "أم عدي" تنظر إلى وجهه وتتعجب، تقول له: "أنتم قمتم بثورة، ولكن وجهك ليس وجه منتصر، ماذا بك؟" ولكنه يتخلص من الرد ولا يعلق بشيء، وعندما يخرج من باب بيته، يلقاه جاره فيسأله بطريقة عفوية: "أبو عدي، يقولون مشبوه عبد الرزاق النايف هذا" وهو يتجاهل السؤال ولا يرد.

ولكن حتى متى؟ وما هو الضمان في أن "الآخرين"- الدخلاء والمتطفلين وأذنابهم- لا يفكرون الآن، ويتدبرون أمورهم، للخلاص من أصحاب الثورة الحقيقيين؟ إن الزمن في خدمة المبادر، وإن لم تبادر الثورة، فلسوف يبادر أعداؤها بالحسم.

وحينذاك... من يستطيع أن يغسل يديه من الدم، ويقتلع من قلبه أشواك الندم، وهو يواجه تاريخاً لا يرحم؟.

14 - الفارس يسترد ثورة شعبه

إثني عشر يوماً لم ينم فيها إلا نوماً متقطعا قلقاً، سرعان ما كان يفيق منه، ويفتح عينيه في الليل، وكأنه يحاول أن يزيح من أمامهما كابوساً في منامه. تلك كانت من أقسى أيام حياته.

لا.. لم يعد ثمة معنى للانتظار أكثر من ذلك، وما بقي في قوس الصبر منزع. خرج مبكراً من بيته في الصباح، وطلب عقد اجتماع سريع للقيادة القطرية، وبعد فترة قصيرة كان كل أعضاء القيادة يجلسون في أماكنهم فيما عدا الرئيس أحمد

حسن البكر الذي كان منصبه الجديد يحول دون خروجه من القصر في ذلك الوقت . وفيما عدا أيضاً عزة مصطفى، وعبد الله سلوم، اللذين سافرا إلى القاهرة قبل قيام الثورة، وعندما عرفا بتوقيتها، بعد أن زعم كل منهما أن لديه عملا هناك لا يستطيع أن يؤجله.

كان اجتماعاً قصيراً لم تتردد فيه سوى بضع كلمات قليلة حاسمة ، قال لهم صدام حسين: "إنني لم أجتمع بكم، يا رفاق، لكي نعيد مناقشة القرار الذي اتخذناه في اليوم السابق على الثورة، بشأن تصفية عبد الرزاق النايف ، فهذا القرار لا يناقش، ولكنني أردت فقط أن أقول لكم إنه قد حان الوقت، والمسألة تعتمد على الجانب الفني السريع...".

قالوا: إننا موافقون تماماً.. واختر الوقت الذي تراه مناسباً.. قال: غداً هو الوقت المناسب ، وانفض الاجتماع السريع الطارىء.

بعد الاجتماع، بدأ يتصل بمجموعة من الرفاق، يثق بهم شخصياً، ويطلب إليهم التواجد في القصر الجمهوري غداً قبل الظهيرة. وكان من بينهم: برزان، جعفر الجعفوي، سعدون شاكر، صلاح صالح، كامل ياسين، عجاج الأحمد الهزاع . ثم اتصل بحراسة الباب الخارجي للقصر وطلب منهم أن يسمحوا لهم بالدخول في الموعد المحدد.

ومرت ليلة بطيئة ثقيلة، كأنها تحمل فوق كل لحظة من لحظاتها جبلا من الصخر ، وما كادت شمس الثلاثين من تموز- يوليو تبزغ، حتى كان صدام حسين يتهيأ للتوجه نحو القصر ، ودخل على الفور إلى مكتب رئيس الجمهورية الرفيق أحمد حسن البكر ، وعرض عليه ما تم في اجتماع القيادة نهار الأمس ، فوافق على قرار القيادة ، وشرح له صدام الخطوط العريضة لما سوف يحدث بعد تناول طعام الغداء في هذا اليوم.

كان طعام الغذاء يومها غزالا مشوياً، ذبحه حماد شهاب، وجلبه إلى القصر ... ولكن قبل أن يدخلوا إلى غرفة الطعام ، توقف صدام حسين مع حماد شهاب قليلا، وانتحى به جانباً وقال له: "أبو رعد هذه المسألة ... ستتم اليوم.. اليوم سأتخلص من هؤلاء"، قال أبو رعد وهو يضحك : هل ضبطت الأمور كلها؟ قال أبو عدي : "كل شيء قد ضبط"... ثم نظر في عينيه نظرة مباشرة وقال سريعاً في حسم: عندما نخرج من غرفة الطعام، وتراني أدخل إلى مكتب الرئيس، لا تدخل أنت، ليس لك حاجة بها ، توجه إلى اللواء المدرع العاشر على الفور، وطوق القصر، أدخل رعيل الدبابات إلى داخل السياج الخارجي للقصر، لأن عبد الرزاق النايف لا ينبغي أن يفلت ، فإذا حاول الانفلات سأقتله، ومن المحتمل أن تحدث مضاعفات، ونقتل نحن هنا . فوحدات القصر تدين كلها بالولاء له، بما في ذلك الحراسات الداخلية في القصر بالإضافة إلى حراسه الشخصيين وهم اثني عشر حارساً مسلحين بالرشاشات يحيطون به، فإذا حدثت تلك المضاعفات، وقتلنا هنا، فأنك تستطيع أنت ومن يتبقى من الحزب، أن تتسلموا السلطة، وتتوكلوا على الله".

على مائدة الطعام كان الرئيس أحمد حسن البكر يجلس وإلى جانبه عبد الرزاق النايف وحردان التكريتي، وصدام حسين، وحماد شهاب، وسعدون غيدان، وصالح مهدي عماش، وكان حماد شهاب يضحك وهو يقول: طعام اليوم غزال كله.

انتهى الطعام، وخرج من الغرفة سريعا ، كان حردان التكريتي يسير إلى جانبه وهو لا يعرف ، نظر إليه صدام حسين وقال له: "أبو سعد اليوم، تكون المسألة منتهية"، قال حردان: اليوم؟ أبا عدي نتفاهم ، صعدا الدرج المؤدي إلى مكتبه ، جلسا لحظة، نظر إليه صدام في عينيه مباشرة، وقال له : "أبو سعد، المسألة لا تحتاج إلى تفاهم". قال حردان: حسناً، ولكنه لا يتوقع أن تتم العملية في نفس اليوم ، ومع ذلك عاد يقول: أبو عدي، أنت تريد أن تقوم بالعملية في هذا النهار. أخوي، سوف تقتلنا، كيف يمكن إتمامها في هذا الظهر ؟ الحرس كله يدين بولائه لعبد الرزاق النايف، قال له صدام: كل شيء تم ترتيبه.

تركه جالساً في مكتبه، وهو يظن أنه اقتنع بتأجيل العملية إلى ساعة أخرى غير هذه الظهيرة، وهبط الدرج مسرعاً لا يلوي على شيء. دخل غرفة المرافقين، وقعت عينه على الرفاق الذين واعدهم ، قال لهم دون أن ينظر إلى وجوههم : إتبعوني... واجتاز بسرعة غرفة السكرتير، وكان يقف بها إلى جانب السكرتير سعدون غيدان، ودخل مباشرة إلى

مكتب رئيس الجمهورية، كان الرفيق البكر جالساً إلى مكتبه، وصالح مهدي عماش جالساً أمامه، أما عبد الرزاق النايف فكان جالساً وظهره نحو الباب الخارجي للغرفة.
سحب صدام حسين مسدسه، ووجهه نحو عبد الرزاق النايف وصاح به : إرفع يديك. التفت النايف إليه وقال: لماذا؟ فلما رأى المسدس موجهاً إليه، وضع يديه على عينيه وقال : عندي أربعة أطفال ، قال له صدام : لا تخف أنت وأطفالك لن يحدث لكم شيء إذا سلكت سلوكاً طبيعياً، عبد الرزاق، أنت تعرف إنك دخيل على الثورة، وإنك حجر عثرة في طريق الحزب، وهذه الثورة دفعنا من أجلها دم القلب حتى رأيناها ، إن قرار الحزب هو إزاحتك من طريقه. انتزع مسدسه من جانبه، وهو يسمع المسدسات في أيدي رفاقه من خلفه تسحب طلقاتها ، ووقف صالح مهدي عماش يريد تخفيف الموقف قائلا: انتظروا ودعونا نتفاهم... توجه إليه صلاح عمر العلي وجره من يده، وأجلسه على مقعده، فجلس دون أن يحاول التحرك مرة أخرى.
قال عبد الرزاق النايف بعد أقل من لحظة: ماذا تريدون مني؟ سحبه صدام
من يده، ودخل به إلى الغرفة المجاورة، وهو يقول له: عبد الرزاق، نحن لن نقتلك، هذا هو ما لك علينا، أما الذي عليك لنا فهو أن لا تحاول أن تتحرك أية حركة تدفعنا إلى قتلك ، ولا بد لك من أن تخرج من العراق ، فأين تريد أن تتوجه؟ في أية سفارة؟
قال النايف: أذهب إلى لبنان.
قال صدام: لا، قال النايف: طيب إلى الجزائر.
قال صدام: لا.. قال النايف: إذن إلى المغرب.
قال صدام: موافقون.
رفع صدام حسين سماعة التليفون، فرد عليه عامل السويتش : نعم سيدي، فقطع السلك على الفور ونظر إلى برزان وجعفر الجعفري، وقال لهما : أنتما تقفان هنا إلى جانبه ولا تتحركا من هذا المكان حتى لو انتقل الكون من موضعه . وإذا حاول أن ينهض من مقعده، أو إذا سمعتم صوت إطلاق نار في الخارج، ومقاومة، أطلقوا عليه النار فورا . هل سمعت يا عبد الرزاق الأوامر؟ قال: نعم سمعتها..
خرج من الغرفة بعد أن أغلقها وتوجه إلى مكتب الرئيس، سحب صالح مهدي عماش من يده، وخرج به من المكتب إلى غرفة السكرتير، فوقعت عيناه على سعدون غيدان، فاندفع نحوه صدام وقبله، وهو لا يدري ماذا جرى، قال سعدون: أبو عدي، ما هي القصة؟ قال له صدام : انتهينا من عبد الرزاق النايف حسب اتفاقنا ، أبو سمرة، هذا صالح مهدي عماش معك، تذهبان الآن مباشرة إلى كتيبة الدبابات وتجلسان هناك ، فذهبا رأسا. وكان طه الجزراوي قد توجه إلى وزارة الدفاع، حيث كان مبلغاً من صدام حسين أن يكون واجبه في مقر وزارة الدفاع ، بينما كان اللواء حماد شهاب يحيط السياج الخارجي للقصر بدبابات اللواء المدرع العاشر.
كل شيء كان يجري بهدوء، وحزم، وسرعة غريبة، وكأنها مشاهد مثيرة في فيلم سينمائي ... توجه صدام مسرعاً صوب الرفاق، وكان الحرس الخاص بعبد الرزاق النايف ما زال في فناء القصر الجمهوري وقد أوعز صدام حسين إلى الرفاق باعتقالهم وتجريدهم من السلاح وفي لمح البصر وجد كل منهم من ألقى به على الأرض بضربة سريعة وشد وثاقه بعد أن جرد من سلاحه.
ذلك كله جرى، وحردان التكريتي لا يدري إن كل شيء قد تم ... رآه صدام نازلا على الدرج من الدور الأعلى وه و يتمخطر، قال له: حردان، أين أنت؟ قال: لماذا؟ قال له صدام: حسبتك قد توجهت إلى مقر القوة الجوية، كل شيء قد تم الآن، إمض على الفور وأطلق طائراتك ... ركض أبو سعد إلى غرفة المرافقين، واتصل بمقر القوة الجوية، وبعد لحظات كانت طائرات السلاح الجوي تحوم في سماء بغداد.

حتى هذه اللحظة كان كل شيء يسير بدقة وإحكام ونجاح. ولكي كيف يتم نقل عبد الرزاق النايف من القصر؟ كيف يتم دون أن يستشعر الحرش الجمهوري الذي كان يدين له بالولاء أو أي جندي في كتيبة الدبابات بأن ثمة شيئاً غير عادي قد حدث له... على الأقل حتى يتم إخراجه من العراق هذه الليلة.

نظر صدام حسين إلى حردان التكريتي وقال له: جهز لنا طائرة في معسكر الرشيد لتنقل عبد الرزاق النايف سفيرنا في المغرب... ثم توجه إلى الغرفة التي يجلس بها النايف وقال له : "عبد الرزاق، سنخرج أنا وأنت الآن من القصر وتذكر أن مسدسي في مكانه تحت السترة ، وسنمر على الحرس في طريقنا، سيؤدون لك التحية، فتؤديها لهم بشكل عادي، وسنتوجه إلى سيارتك الرسمية التي يرفرف عليها العلم على جانبها ، فنركبها، تركب أنت أولا وأنا إلى جانبك، وبالطبع أنت تعلم أن أية حركة أو أية كلمة سوف تبدر منك داخل السيارة تعني إنك سوف "تتكوم" على نفسك، وتموت على الفور. هل أنت موافق؟" قال النايف: موافق.

خرج عبد الرزاق النايف وإلى جانبه صدام حسين من الغرفة، وهما يسيران بهدوء جنباً لجنب، بينما الحرس الجمهوري يؤدي التحية لرئيس الوزراء، وهو يرد عليهم التحية، بانضباط عسكري ، وهم لا يعلمون أن هذه هي المرة الأخيرة في حياته التي يتلقى فيها مثل هذه التحية... وعند الباب الخارجي كانت أبواب السيارة مفتوحة، دخل فيها أولا ثم جلس إلى جانبه صدام حسين. وفي المقعد الأمامي جلس إلى جانب السائق صلاح عمر العلي ، بينما كان قسم من الرفاق قد توجه إلى معسكر الرشيد ليصاحبوا السيد السفير الجديد إلى مقر عمله في المغرب.

في معسكر الرشيد، كانت الطائرة قد أدارت محركاتها، وعند سلمها وقف برزان وسعدون شاكر وجعفر الجعفري، وعدنان شريف، ينتظرون المسافر الذي لن يعود إلى بغداد مرة أخرى . وصعد عبد الرزاق النايف إلى الطائرة، واتخذ الرفاق مقاعدهم من حوله، وقبل أن يهبط صدام من الطائرة أخرج مسدس عبد الرزاق النايف الذي كان قد انتزعه منه، وسلمه إليه. وقال له: هذا هو مسدسك، أما الطلقات فسوف يعطيها لك سعدون شاكر عندما تصلون إلى هنالك . عندما ارتفعت الطائرة في سماء بغداد، أخرج صدام حسين منديله، ومسح دموعاً سقطت من عينيه. كان الكابوس الرهيب قد مضى بعيداً، بعيداً، فوق السحاب، وفوق الأرض استعادت الثورة روحها.

عادت به السيارة إلى القصر الجمهوري ، دخل مكتب الرئيس، ونظر إليه وقال: بقي إبراهيم الداوود، ولم يكن الداوود يومها في العراق. كان في الأردن يفتش قطعات من الجيش العراقي متواجدة هناك منذ حرب 1967. فاتصل حردان التكريتي بضابط بعثي سابق اسمه- "حسن النقيب" وقال له: اعتقلوا الآن إبراهيم الداوود، ولكن "النقيب"- الذي لم يكن يعرف شيئاً عما جرى- كان يدعي أنه لا يسمع ، ساعتها قرر صدام على الفور إرسال طائرة إلى هناك، بها عدد من الرفاق، على رأسهم صلاح صالح، لإلقاء القبض عليه بعد أقل من ساعة.

ثم جلس على مقعده أمام مكتب الرئيس ، وأخرج من جيبه بهدوء ورقة وضعها أمام الرفيق أحمد حسن البكر ، كانت الورقة تتضمن "بيان 30 تموز- يوليو" الذي كان قد أعده من قبل.

تناول الرئيس الورقة، وقرأها، وأخذ يعيد كتابة البيان بخط يده، ولكنه لاحظ

أن التوقيع هو: أحمد حسن البكر رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة. فسأله: ماذا تعني بهذه العبارة؟ قال أبو عدي في حساباتي إنه لا حردان التكريتي ولا صالح مهدي عماش يكون قائداً عاماً للقوات المسلحة، تابع الرفيق البكر كتابة البيان، ثم نهضا، وخرجا من الغرفة، وتوجها معاً صوب مبنى الإذاعة، وفي تمام الساعة السابعة من مساء 30 يوليو- تموز 1968، انطلقت أمواج الأثير لتعلن على جماهير الشعب العراقي، وعلى الأمة العربية، وعلى العالم أجمع، أن ثورة السابع عشر من تموز- يوليو قد تطهرت، وأن حزب البعث العربي الاشتراكي في العراق، قد استعاد شعبه، واسترد ثورته.